الإعجاز البياني
في القرآن الكريم

سورة الفجر

محمد مبارك المزيودي

سورة الفجر

مكية ، وهي ثلاثون آية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ وَٱلْفَجْرِ ﴿١﴾ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴿٢﴾ وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ ﴿٣﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴿٤﴾ هَلْ فِي ذَٰلِكَ
قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ ﴿٥﴾ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ﴿٧﴾ ٱلَّتِي لَمْ يُخْلَقْ
مِثْلُهَا فِي ٱلْبِلَٰدِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِي ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾
ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِي ٱلْبِلَٰدِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ
عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ
فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا ۖ
بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾
وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾ كَلَّآ إِذَا
دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِا۟ىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ
بِجَهَنَّمَ ۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي
﴿٢٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٦﴾ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ
﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِي فِي عِبَٰدِي ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِي جَنَّتِي ﴿٣٠﴾ ﴾

الفجر: ١ - ٣٠

مقـــاطع السورة

1 ـ القسم وجوابه

﴿ وَٱلْفَجْرِ ﴿١﴾ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴿٢﴾ وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ ﴿٣﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴿٤﴾ هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ ﴿٥﴾ ﴾ الفجر: ١ – ٥

2 ـ كثرة العطاء ابـتـلاء

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ﴿٧﴾ ٱلَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي ٱلْبِلَـٰدِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِي ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِي ٱلْبِلَـٰدِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾ ﴾

الفجر: ٦ – ١٤

3 ـ الكرامة والإهانة في رأي الإنسان.

﴿ فَأَمَّا ٱلْإِنسَـٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَهَـٰنَنِ ﴿١٦﴾ ﴾ الفجر: ١٥ ـ ١٦

4 ـ الكرامة والإهانة في دين الله

﴿ كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَـٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾ ﴾ الفجر ١٧ ٢٠

5 ـ الكرامة والإهانة يوم القيامة

﴿ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾ كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِا۟ىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ ۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَـٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾ يَقُولُ يَـٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ﴿٢٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٦﴾

يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾ ﴾ الفجر: ٢٠ - ٣٠

التفسير والبيان

1- القسم وجوابه.

﴿ وَٱلْفَجْرِ ﴿١﴾ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴿٢﴾ وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ ﴿٣﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴿٤﴾ هَلْ فِى ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِى حِجْرٍ ﴿٥﴾ ﴾ الفجر: ١ - ٥

﴿ وَٱلْفَجْرِ ﴾ الفجر: ١

يقسم جل شأنه بالفجر، وفي القسم به إشارة إلى عظم شأنه، هذا فوق أن الله جعله اسماً للسورة . وقد تكرر القسم به في كتاب الله ، ولكن بلفظ آخر ، وهو الصبح ، قال تعالى : ﴿ وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ ﴿٣٤﴾ ﴾ المدثر: ٣٤ ، وقال تعالى : ﴿ وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾ ﴾ التكوير: ١٨، وعندما يقسم الله عز وجل بخلق من خلقه كان ذلك القسم إشارة إلى قدسية المقسم به، إلا أن هذه القدسية ليست قدسية ذاتية، إنما هي قدسية مكتسبة، اكتسبها ذلك الخلق بتجلي القدوس سبحانه عليه، إما بتجلي الذات كما هو الحال في يوم عرفة ، وإما بتجلي الخطاب الإلهي كالذي كان في الوادي المقدس{ طوى} أو بتجلي الإرادة وهو أن يقضي الله تعالى قضاء يخرق به ماقدره في الأرض من نواميس، كشق البحر لموسى عليه السلام أو كانتصار المسلمين في يوم بدر .....

فهل في الفجر شيء من ذلك التجلي ؟؟

قال الله تعالى :﴿ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾ ﴾ الإسراء: ٧٨

قرآن الفجر : صلاة الفجر

مشهوداً : يشهده ملائكة الليل والنهار، ينزل هؤلاء ويصعد هؤلاء.

فهل يشهد الله عز وجل قرآن الفجر ؟

قال رسول الله ﷺ **{ ينزل اللّه تبارك وتعالى إلى السماء الدنيا كل ليلةٍ حين يمضي ثلث الليل الأول ، فيقول: أنا الملك أنا الملك ، من ذا الذي يدعوني فأستجيب له ، من ذا الذي يسألني فأعطيه ؟ من ذا الذي يستغفرني فأغفر له ؟ فلا يزال كذلك حتى يُضيء الفجر }** رواه مسلم والبخاري

نص الحديث صريح في أن نزول الله تبارك وتعالى يستمر إلى أن يضيء الفجر، ووفقاً لما هو معلوم من دلالة النزول في واقع الإنسان فإن النزول يستدعي الشهود، أي أنه سبحانه يشهد صلاة الفجر وفقاً لما ذُكِر من نزوله إلى السماء الدنيا كل ليلة، فاقتضى ذلك الشهود أن يكون لصلاة الفجر مقاماً خاصاً، وهو قول رسول الله ﷺ : **{ من صلى الصبح فهو في ذمة اللّه ، فلا يطلبنكم اللّه من ذمته من شيء فيدركه ، فيكبه في نار جهنم }** رواه مسلم والترمذي

فصلاة الصبح صلاة كغيرها من الصلوات المفروضة، لاتختلف عنها في ركوع ولافي سجود، بل إنها أقل الصلوات عدد ركعات، وبرغم ذلك فهي الصلاة الوحيدة التي يكون بها المرء في ذمة الله، وأمام فليس أمامنا من سبب يفسر هذه الخصوصية سوى أن الفجر ميقات لهذه الصلاة، فهو ميقات مقدس نال قدسيته من تجلي { نزول } القدوس، بما تحمله دلالة التجلي من قربه سبحانه وتعالى .

والفجر في اللغة يحمل في عموم دلالته معنى الانبثاق المتبوع بالانتشار ومن ذلك قوله سبحانه لموسى عليه السلام: ﴿ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ﴾ البقرة: ٦٠ . فمبدأ انفجار الماء هو انشقاق الحجر عنه ثم تدفقه وانتشاره، وكذلك هو الفجر، وذلك من وجهين :

الأول : أنه انفجار للنهار من تحت غطاء الليل، يُقال في اللغة: انفجر الصبح، وفي هذا المعنى قوله تعالى: ﴿ وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴾ التكوير: ١٨ . فالصبح هو أول انفجار للنهار، ثم يبدأ في الانتشار إلى أن يعم الضياء الفضاء .

الثاني : مع الفجر تنبثق حياة الإنسان ، إذ يستيقظ من النوم ، ثم يبدأ انتشاره في طلب معاشه، قال تعالى:﴿ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴾ النبأ : ١٠ – ١١ وهو الأصل الذي جُعل له الليل والنهار، وإن خالفه الناس قليلاً أو كثيراً، ووفقاً لهذا الأصل فإن الفجر هو ساعة انبعاث الإنسان للحياة ﴿ المعاش ﴾ لقول رسول الله ﷺ إذا استيقظ من نومه : **{ الحمد للَّه الذي أحيانا بعدما أماتنا وإليه النشور }** رواه مسلم .

فالنوم موت، ولذلك كان الاستيقاظ من هذه الحالة ﴿ فجراً ﴾ أي انبثاقاً لحياة ذلك النائم، ثم تشرع هذه الحياة في الانتشار، وذلك تبعاً لتنوع وتعدد أسباب طلب المعاش.

أي أن الفجر الذي يكون في آخر الليل هو الوقت الذي تتجلى فيه قدرة الله على الإحياء ؛ إحياء الإنسان وإحياء المعاش :

أولاً : إحياء الإنسان ، وهو ماأشار إليه الحديث السابق إشارة صريحة، حيث ذكر أن النوم موت، والاستيقاظ إحياء ، قال تعالى:

﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ الزمر: ٤٢

ثانياً : إحياء المعاش ، وذلك أن سعي الإنسان في الأرض لطلب الرزق مرهون بضوء النهار ، ولحظة الإحياء هذه تنبثق مع الفجر، هذا من وجه، ومن وجه آخر فإن النهار خلق من خلق الله ، قال تعالى :

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۗ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ ﴾ القصص: ٧١

ففي كل يوم يُولد { ضياء } جديد، وساعة ميلاده هي ﴿ الفجر ﴾، أو أن النهار يولد فجراً، ثم التصقت به هذه التسمية ؛ لأن الانتشار حالة ملازمة لذلك الفجر الذي كان في أول النهار. فلا أحد يملك أن يأتينا بضياء غير الله، ولذلك كان انفجار النهار من أجلى الشواهد الدالة على تجلي قدرة الله.

﴿ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴿٢﴾ ﴾ الفجر : ٢

قيل : هي عشر ذي الحجة، وقيل: هي العشر الأول من محّرم، وقيل: هي العشر الأواخر من رمضان. أما التنكير، فقد وجَّهوه للدلالة على فضل هذه الليالي، ومستندهم في هذا التوجيه أنها جاءت نكرة في جملة المعارف التي أقسم بها جل شأنه في الآيات الأربع الأولى ، وهو اجتهاد بعيد، عرضة للموافقة أوالمخالفة، ولذلك أقول: إن التنكير جاء على بابه، وهو الدلالة على العموم، أي على متعدد، ومثال ذلك أنك لو قلت: رأيت الشجرة، لذهب الظن إلى شجرة بعينها، وأما إن قلت: رأيت شجرة، لذهب الظن إلى أشجار عديدة، ليس بمقدروك أن تستحضرها جميعاً ؛ لكثرتها ولجهلك بها. ومن هذا الوجه جاء تنكير ﴿ ليالٍ ﴾ للدلالة على عشرات عديدة، ذكرها أهل التفسير ولم يستقروا على اختيار واحدة منها، لأن كل عشرة لها وثائق نصية تجعلها مقصودة بلفظ ﴿ وليال عشر ﴾ والحال أن التنكير جاء للدلالة على كل تلك العشرات، وأصل إرادتهن هو ماكان في كلٍّ منهن من تجل، وبيان ذلك فيما يلي :

أولاً : عشر ذي الحجة

ومناط قدسية هذه العشر هو تجليّ الله تعالى في اليوم التاسع منهن، وهو يوم عرفة، لقول رسول الله ﷺ : **{ مامن يوم أكثر من أن يُعتق اللّه فيه عبداً من النار من يوم عرفة، وإنه ليدنو عز وجل ثم يُباهي بهم الملائكة فيقول : ماأراد هؤلاء }** رواه مسلم والنسائي وابن ماجه. وفي بعض روايات الحديث قيل ﴿ ينزل ﴾ مكان ﴿ يدنو ﴾ .

إذاً ، تجلى﴿القدوس﴾ في اليوم التاسع فأصبح ذلك اليوم مقدساً ، وتقدست بقدسيته العشر التي هو تاسعها. ولذلك قال ﷺ **{ مامن أيام عند اللّه أفضل من عشر ذي الحجة }** رواه أبو يعلى والبزار وابن حبان

ثانياً: عشر المحرم

ومناط قدسية هذه العشر هو تجلي قدرة الله تعالى في اليوم العاشر منه، وهو مارواه ابن عباس رضي الله عنهما: **قدم النبي ﷺ المدينة، فرأى اليهود تصوم يوم عاشوراء فقال: { ماهذا ؟ } قالوا : يوم صالح نجى اللّه فيه موسى وبني إسرائيل من عدوهم فصامه موسى، فقال ﷺ : { أنا أحق بموسى منكم } فصامه وأمر بصيامه }** رواه البخاري ومسلم.

وذلك أن نجاة موسى عليه والسلام ومن معه لم تتحقق إلا بتجلي قدرة الله، فنال ذلك اليوم قدسيته بتجلي قدرة ﴿ القدوس ﴾ فيه، ثم انساقت هذه القدسية إلى العشر التي هو عاشرها. ولذلك جاء في حديث رسول الله ﷺ أنه سُئل : **أي الصلاة أفضل بعد المكتوبة ؟ قال : { الصلاة في جوف الليل } قيل: ثم أي الصيام أفضل بعد رمضان ؟ قال : { شهر اللّه الذي تدعونه المحرم }** رواه مسلم وأحمد وأبو داود.

ثالثاً عشر رمضان

وهي العشر الأواخر من رمضان، ومناط قدسيتها هو ليلة القدر التي قال فيها عز وجل:

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴿١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ﴿٢﴾ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾ سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ﴿٥﴾ ﴾
القدر: ١ ــ ٥

فليلة القدر ليلة مقدسة، نالت قدسيتها من تجلي ﴿ القدوس ﴾ ومظهر تجليه سبحانه هوإنزال كلامه ﴿ القرآن ﴾ في تلك الليلة، وهو إنزال أراد الله به الرحمة للناس، ثم ماقضاه الله عز وجل من تنزل الملائكة والروح فيها، وهو ماأوجب الإخبار عنها بأنها ﴿ سلام هي حتى مطلع الفجر ﴾ وقد مضت هذه القدسية على العشر الأواخر من رمضان لقدسية ليلة القدر التي هي إحدى لياليها. وتحرياً للثواب الجزيل في هذه العشر سن رسول الله ﷺ لأمته سنة الاعتكاف في هذه الليالي.

فكل ماسبق مُدرج في إطار قوله تعالى ﴿ ولياليٍ عشر ﴾ وضابط إرادتها أنها جميعاً كان فيها تجلٍّ لله تعالى، وهو مايجعلها متساوية مع الفجر الذي أقسم به جل شأنه لنفس السبب الحاصل في تلك الليالي وهو التجلي الذي ينبني عليه نفاذ أمر الله تعالى ومراده.

﴿ وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ ﴿٣﴾ ﴾ الفجر: ٣

الشفع الاثنان، والوتر فرد، هذا في حد المعنى اللغوي، أما المراد منهما فقد اختلف فيه اختلافاً كبيراً، وهو مالاأحب انتهاجه في بيان الآيات. ولذلك فإن بيان الآية لن تتجلى أركانه إلا من بعد التعرض للآية التالية ، وهي قوله تعالى :

﴿ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴿٤﴾ ﴾ الفجر: ٤

أجمع المفسرون على قول: هذا قسم خامس، فبعد ماأقسم الله تعالى بالليالي العشر على الخصوص أقسم بالليل على العموم . وهو قول جليل يبين مابين القسمين من ارتباط، ولكن ألا يفترض أن يكون هذا الارتباط سارياً أيضاً على الفجر والشفع والوتر، وذلك في ظل مايستلزمه السياق الواحد من ارتباط بين أقسام البيان ؟؟؟

ليس هناك من اختلاف حول كون الفجر هوالساعة الأخيرة من الليل، فهو على ذلك جزء من الليل، أي أنه داخل في حيّز الليالي العشر وفي حيّز الليل إذا يسري، فما هو النظام الذي اجتمعت فيه هذه الأقسام الثلاثة ؟؟

﴿ وَٱلْفَجْرِ ﴾ هو جزء يسير من الليل، ويكون في الساعة الأخيرة منه

﴿ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴾ ليال جمع ليلة، وهي التي تبدأ من غروب الشمس وتنتهي قُبيل شروق الشمس . أي أن مساحة الليل في هذه الآية أكثر اتساعاً من مساحة الفجر، ولكنها مع ذلك ليالٍ معدودة

﴿ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴾ اتسعت مساحة الليل في هذه الآية لتشمل الليل كله على مدى الزمان . فالآيات الثلاثة ترسم ثلاث دوائر: دائرة الفجر، وهي الصغرى، ودائرة الليالي العشر، وهي الوسطى، ودائرة الليل وهي الدائرة الكبرى، وهذا النسق يقودنا إلى القراءات التالية :

تقديم الفجر على الركنين الآخرين يجعل له قدسية أجلّ وأعلى، وهو مابينه ﷺ بالإخبار عمن صلى الفجر بأنه **{ في ذمة اللّه }** .

ثم ذكر الليالي العشر ثم ذكر الليل مطلقاً، وفصل بينهما بآية : ﴿ والشفع والوتر ﴾ وهما ليسا جزءاً من الليل، فكان ذلك خروجاً عن النسق العام الذي يذكر الليل من وجوه مختلفة: الفجر، ليال عشر، الليل إذا يسر، هذا مايبدو في ظاهر الأمر، أمافي باطنه فإن الآية منسجمة مع السياق العام تمام الانسجام، وبيان ذلك فيما يلي:

أمر رسول الله ﷺ أمته بالتعرض لنفحات الله، وهي تلك الأوقات والأيام المقدسة، وبين أن وسيلة التعرض لهذه النفحات هي الإقبال على العمل الصالح، وهومايشير إليه قوله في شأن عشر ذي الحجة : **{ مامن أيام العمل الصالح أحب إلى اللّه عز وجل من هذه**

الأيام } قالوا: يارسول اللّه ولا الجهاد في سبيل اللّه؟ قال: { ولا الجهاد في سبيل اللّه إلا رجل خرج بنفسه وماله ثم لم يرجع بشيء من ذلك } رواه البخاري وأصحاب السنن .

فما أحب الأعمال إلى الله ؟

عن ابن مسعود رضي الله عنه قال :

سألت النبي ﷺ : أي العمل أحب إلى اللّه؟ قال: { الصلاة على وقتها } قلتُ : ثم أي ؟ قال : { ثم بر الوالدين } قلت : ثم أي ؟ قال { الجهاد في سبيل اللّه } رواه البخاري ومسلم . ولذلك كان من سنته ﷺ الإكثار من الصلوات في تلك الأيام المقدسة، ومن ذلك أنه كان يعتكف في العشر الأواخر من رمضان. فإذا جئنا إلى الآيات التي نحن بصددها وجدنا أن الفجر قد جعل الله له صلاة مفروضة، وكذلك الليل جعل الله فيه صلاتين هما صلاتا المغرب والعشاء، ولأن الليل عموماً والليالي العشر تخصيصاً يجمعها تشريع واحد ، هو صلاة الليل أدرج الله الشفع والوتر بينهما، لبيان أنهما يمضيان هنا وهناك، ولذلك فإن الشفع والوتر يمضيان على مستويين :

الأول : مستوى الفرض في المغرب والعشاء، فكل منهما تسري عليه دلالة الشفع والوتر ، إذ أن المغرب ثلاث ركعات: اثنتان قبل الجلوس وهما الشفع وواحدة بعد الجلوس وهي الوتر. والعشاء أيضاً شفع ووتر، فالركعات المفروضة أربع ركعات وهي شفع، أما وترها فهي السنة المؤكدة التي يختم بها المسلم صلاته في اليوم والليلة ، لقوله ﷺ : **{ اجعلوا آخر صلاتكم من الليل وتراً }** رواه البخاري . وهي سنة مؤكدة تكاد تبلغ حد الفرض ، إذ لاتجد مسلماً يصلي العشاء بدون أن يختم صلاته بالوتر . حتى أن بعض الأئمة اقترح أن يتركه المسلم مرّة حتى لايكون تعامله معه كتعامله مع الفرض الذي لايجوز تركه .

الثاني : ولكن الصلاة في الليل لاتقف عند حد صلاتي المغرب والعشاء ، فهناك صلاة أخرى كانت في أول أمرها فرضاً ، ثم نسخت فرضيتها فأصبحت تطوعاً ، ألا وهي صلاة الليل ، وقد ذكر ﷺ هيئتها لسائل سأله: **{ صلاة الليل مثنى مثنى، فإذا خشي أحدكم الصبح صلى ركعة واحدة تُوتر له ماقد صلى }** رواه البخاري ومسلم فالمثنى هو الشفع ، وفي الـختام تُصلى ركعة واحدة، وهي الوتر .

فالليل مقدس، وسبب قدسيته هو تجلي القدوس في الثلث الأخير منه. وكان أجل عمل يؤديه المسلم في هذه المساحة المقدسة هو الصلاة ، أي صلاة الليل ﴿ الشفع والوتر ﴾ وقد خُصت الليالي العشر بالذكر لتوجيه العباد إلى أنهم إن فاتهم أن يكونوا ممن يصلون صلاة الليل فالأولى بهم أن لاتفوتهم هذه الصلاة في تلك العشر، لأن القدسية فيها مضاعفة، قدسية الشهر الحرام وقدسية التجلي الإلهي، وهو مايستدعي فتح باب القبول والرحمة على مصراعيه لكل من أراد الإقبال إليه.

﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَسۡرِ ﴾ يَسۡرِ : فعل مضارع أصله: يسري، وهو فعل يدل على السعي ليلاً، ومن ذلك قوله سبحانه : ﴿ سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا ﴾ الإسراء : ١ والليل لايسري ، بل يُسْرَى فيه ، وهو المراد كما قال أهل التفسير ، وأيدوا ذلك بقول أهل اللغة : ليلٌ نائم ونهار صائم .

أما تعليقنا على ذلك فهو أن مااستشهدوا به من قول أهل اللغة : ليل نائم ، إنما هو من قبيل المجاز المرسل ، لأن الليل لاينام، إنما ينام من حلّ فيه . ومن هذا الوجه فقط تم إسناد السُّرَى إلى الليل ، أي أنه أراد الذين يسعون في الليل. وهو معنى ينأى بدلالة الآية عن السياق العام الذي يذكر الليل والصلاة فيه . وذلك أن كل الآيات التي أقسم الله فيها بالليل لم يختلف أهل التفسير في ثبوت دلالة الفعل لليل نفسه : ﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ﴿١﴾ ﴾ الليل: ١ ﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذۡ أَدۡبَرَ ﴿٣٣﴾ ﴾ المدثر: ٣٣ , ﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ ﴾ الضحى: ٢ ﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ﴿١٧﴾ ﴾ التكوير: ١٧ .

فكل تلك الأفعال مسندة إلى الليل ، فكيف يسري الليل ، وما علاقة ذلك بالسياق العام الذي يربطه بالصلاة في كلمتي : الفجر ، والشفع والوتر ؟

إذا غابت الشمس بدأ الليل ، ولكنها بداية لن تكون مظلمة ، لأن الظلمة لاتشتد إلا مع تقدم الوقت ، ومضيّ الليل في هذه الظلمة هو مدلول إسناد السُّرَى إلى الليل ، فالليل يسري في هذه الظُّلْمة التي تبدأ عقب مغيب الشمس وتمتد إلى حين أوان الفجر، ولكن الشفع والوتر لايمتدان إلى ذلك الأوان، فكان لزاماً بيان حدّهما، ولذلك كان حذف الياء من الفعل ﴿ يسري ﴾ على غير علة لغوية ، إشارة إلى أن حد الشفع والوتر

هو الثلثان الأولان من الليل ، وذلك أن ماضي الفعل { يسري } هو : سرى ، وهو ماضٍ ثلاثي، فكان حذف الحرف الثالث من مضارعه إشارة إلى أن الثلثين الأولين من الليل هما أوان صلاة الليل . فهل لهذا الكلام من وثائق تؤيده ؟

أولاً : على مستوى الفريضة سنجد أن المغرب محصور في وقت محدود يبدأ من ظهور الشفق الأحمر وينتهي مع غيابه ، أما العشاء فوقته يبدأ بعد غياب الشفق الأحمر. وقد علمنا أداء الصلاة في وقتها الذي تحل فيه هو خير الأعمال كما قال ﷺ ، وهو مامن شأنه أن يكون ماضياً على صلاة العشاء ، فماذا ورد في شأن صلاة العشاء ؟؟

عن عائشة رضي الله عنها قالت : **{ أعتم النبي ﷺ ذات ليلة حتى ذهب عامة الليل، حتى نام أهل المسجد، ثم خرج فصلى فقال: { إنه لوقتها لولا أن أشُق على أمتي }** رواه مسلم والنسائي . وفي رواية أخرى ورد عنه قال: **{ ...لولا ضعف الضعيف وسقم السقيم وحاجة ذي الحاجة لأخرت هذه الصلاة إلى شطر الليل }** رواه أحمد وأبو داوود والنسائي وابن ماجه وابن خزيمة .

فصلاة العشاء بشفعها ووترها تبدأ مع غياب الشفق الأحمر، وكلما سرى الليل كان ذلك هو الأفضل، ولكن ليس على مدى الليل كله بل إلى شطره أو ثلثيه، ولذلك حُذفت الياء من ﴿ يسر ﴾ للدلالة على حدّ ذلك السُّري .

ثانياً : أما على مستوى صلاة الليل فقد قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ۝٢ نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا ۝٤ ﴾ المزمل: ١ – ٤

فالليل في هذه الآيات يسري ، لأن الله عز وجل لم يربط قيام الليل بحدٍّ محدود من الليل ، بل جعله متحركاً: أقل من ا لنصف – النصف- أكثر من النصف ، وهو ما صرح به أهل التفسير بلفظ الثلثين ، فأقصى حدٍّ لصلاة الليل هو الثلثان، أما الثلث الثالث فغير مدرج في هذه الحركة ، ولذلك حُذِف الحرف الثالث من ماضي الفعل ﴿ يَسۡرِ ﴾ قال أنس رضي الله عنه في وصف صلاة رسول الله ﷺ : **ماكُنا نشاء أن نراه من الليل مصدياً إلا رأيناه. وماكنا نشاء أن نراه نائماً إلا رأيناه ..**رواه البخاري وأحمد والنسائي . أي أنه ﷺ لم يربط قيامه الليل بوقت مخصوص، بل كان يقومه على ماتيسر له ، مرة في أوله وأخرى في وسطه وثالثة في آخره ، وهذه الحركة

تطبيق لدلالة﴿ يسري ﴾ أي أن صلاة الليل صلاة متحركة مع حركة الليل، ولكنها لاتستغرق الليل كله ، إنما تستغرق ثلثيه الأولين ، ولذلك حُذفت الياء من ﴿ يسر ﴾ .

﴿ هَلۡ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٞ لِّذِي حِجۡرٍ ٥ ﴾ الفجر: ٥

لذي حجر : لذي لب وعقل .

الاستفهام قد يأتي على حقيقته وهو طلب الفهم لأمر لم يكن مفهوماً ، والله عز وجل منزه عن ذلك ، إذ لايخفي عليه شيء في الأرض ولافي السماء ، وبذلك يكون الاستفهام قد خرج عن معناه الحقيقي إلى المعنى البلاغي، وهو الدلالة على أنه قسم عظيم ، والله عز وجل عندما يقسم فإن قسمه حتماً قسم عظيم ، وهو سبحانه يعلم ذلك، فجاء الاستفهام مراعياً لمقتضى الحال . ومنشأ الدلالة على عِظَم ماأقسم به جل شأنه هو مااشتملت عليه تلك الأوقات من تجليات قدرة الله تعالى ورحمته .

والمخاطب في هذه السورة هو محمد ﷺ وذلك من وجهين ، الأول : أنه أول إنسان يتلقى الخطاب من الله بالقرآن ، والثاني : قوله في الآية التالية لهذه الآية: ﴿ أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴾ وهو خطاب مخصوص لمحمد ﷺ، ثم الالتفات فيه إلى ما كان يشهده رسول الله ﷺ من سطوة المشركين بالقلة الضعيفة التي آمنت بما كان يدعو إليه.

﴿ لِّذِي حِجۡرٍ ﴾ لم يُسْتخدم هذا اللفظ للدلالة على العقل إلا مرة واحدة ، وهي تلك الواردة في هذه السورة ، وليس لنا بأي حال أن نقول إن سبب الاستخدام هو فقط موافقة فواصل الآي ، لأن مستوى البيان في القرآن يتجاوز حد الصورة اللفظية إلى الحد الدلالي ، وذلك كالوجه الذي فصلناه في حذف الياء من كلمة ﴿ يَسۡرِ ﴾ ، فماذا في كلمة ﴿ حِجۡر ﴾ من بيان ؟

الحِجْر في اللغة يعني المنع ، ووجه دلالته على العقل أن العقل يمنع صاحبه من الانسياق إلى مالايليق به، وذلك أن العقل في اللغة يعني القيد، ومنه : عقلتُ البعير، أي ربطته فأثبته في مكانه ، ووجه دلالته على الإدراك أن الإنسان يَعْقِل مايعرض له من بيان مسموع أو مرئي، وقد قيل في معنى ﴿ لذي حجر ﴾ أنه بمعنى : لذي حلم ، لأن

الحليم يمنع نفسه من الانسياق للغضب، وللجمع بين المعنيين نقول : إن صفة الحلم لا تتحقق إلا لدى من كان ذا عقل وافر .

وبالنظر إلى أن الخطاب في الآيات التالية يتوجه إلى محمد ﷺ كان لنا أن نقول إن استخدام كلمة ﴿ حِجر ﴾ جاء إشارة إلى ما يجب أن يكون عليه في مبدأ الدعوة ، وذلك قبل أن تجتمع لديه كل الأصول التي يجب أن يتبعها في معرض الدعوة إلى الإسلام ، فقد كان ﷺ حريصاً على انتشار الإسلام ، فإذا رأى المشركين وماهم عليه من قوة ومن بطش، ورأى المسلمين وماهم عليه من ضعفٍ وقلة عدد انزعج لهذه المقارنة ، فأنزل الله هذه الآيات ليثبت بها فؤاده ، وذكر له أقواماً هم أشد قوة من مشركي مكة، فلم تمنعهم هذه القوة من أن يصيبهم الله بسوط عذاب، فامتنع محمد ﷺ من ذلك الانزعاج، وهو ماتّمت مراعاته بذكر ﴿ لذي حجر ﴾ .

ولكن دلالة الخطاب ليست وقفاً على رسول الله ﷺ ، بل هي أولى بمن اتبعه من الناس في ذلك الأوان وفي كل أوان ، لأن رسول الله ﷺ يملك من اليقين والتأييد الإلهي مايجعله ممتنعاً من أن يفتَّ في عضده مايراه من ضعف المسلمين أمام قوة المشركين العظيمة، ومايرافق ذلك من بطش بالمسلمين، وكأن الخطاب إنما أُريد به الإنسان عموماً عبر خطاب إنسان بعينه وهو محمد ﷺ .

عن خباب بن الأرت رضي الله عنه قال:

شكونا إلى رسول اللّه ﷺ وهو متوسد بُردة له في ظل الكعبة قُلنا له : ألا تستنصر لنا ؟ ألا تدعو اللّه لنا ؟ قال : { كان الرجل فيمن قبلكم يُحفر له في الأرض فيُجعل فيه ، فيجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيشق باثنين، ومايصده ذلك عن دينه، ويُمشط بأمشاط الحديد مادون لحمه من عظم أو عصب، ومايصده ذلك عن دينه. واللّه لَيُتِمَّن اللّه هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضر موت لايخـاف إلا اللّه ، أو الذئب على غنمه ، ولكنكم تستعجلون } رواه البخاري

خباب بن الأرت ومعه مجموعة من المستضعفين في مكة ناءت كواهلهم بما يلقونه من بطش مشركي مكة فضجوا إلى رسول الله ﷺ ليدعو ربه أن ينصرهم على طغيان قريش، أي أنهم تقاصر صبرهم عن أن يحجرهم من أن يضجوا بالشكوى إلى رسول الله

ﷺ ، فذكر لهم شواهد على ذوي الحجر الذين امتنعوا بإيمانهم من التضعضع أمام شدة العذاب .

فإذا استحضرنا تلك المضامين الورادة في القسم سنجد تناسباً بينها وبين اشتمال المسلم على دلالة ﴿ الحجر ﴾ ومستند ذلك أن الذي يصلى الفجر هو **{ في ذمة اللّه }** ومن كان في ذمة الله فهو حتماً ممتنع بالدخول في هذه الذمة من أن يناله أحد بأذى إلا ماشاء الله ، هذا فيما يحيط به من أحوال ، أما دلالة الحجر في ذاتها فيدلنا عليها قول رسول الله ﷺ **{ بورك لأمتي في بكورها }** والبركة تعني الزيادة والنماء ، ولاتكون البركة إلا من الله ، والعقل من المواضع التي تسري عليها البركة، فإذا كان ذلك اتسعت فعالية العقل لدى المسلم ، وهو مامن شأنه أن يجعله من ذوي الحجر، أي لديهم من العقلانية مايحجرهم، أي يمنعهم ، من الاستغراق في الذنوب .

وكذلك هو الشأن مع صلاة الليل، جعلها الله سبباً لحصول دلالة الحجر في ذات المسلم ، ومن ذلك قول رسول الله ﷺ **{ عليكم بقيام ، فإنه دأب الصالحين قبلكم ، ومقربة من ربكم ، ومكفرة للسيئات ، ومنهاة عن الإثم ، ومطردة للداء عن الجسد }** رواه الطبراني .

مَنْهَاة عن الإثم : يحجر المسلم،يمنعه من الوقوع في الإثم.

مطردة للداء عن الجسد : أي يصرفه عنه، أي يحجره منه.

وهذه المعاني تتوائم مع دلالة **{ في ذمة اللّه }**

جـواب القـسـم :

الجواب محذوف ، قدره القرطبي والنسفي بقولهما: لَيُعَذَّبَنَّ . وهو تقدير منهما رحمهما الله ، ولكن هذا التقدير يستوجب نزول العذاب بالذين كذبوا ، لأن الله عز وجل أقسم عليه ، وهو مالم يفعله رب العالمين بمشركي مكة ، بل إنهم ، بعد صولات وجولات، دخلوا في دين الله أفواجاً ، فانصرف عنهم العذاب ، وواقع الحال أن الله أقسم على تعذيبهم { في حال تأويل الجواب بكلمة ﴿ ليعذبن ﴾ ولايجوز أن ننسب إلى الله القسم على شيء ثم لايتحققما أقسم عليه . والذي ساق الشيخين إلى هذا التأويل أنهما لمحا معنى نزول العذاب في الآيات التي تذكر عاداً وثموداً وفرعون . ولكن الله عز

وجل لم يعذب مشركي قريش مثلما فعل مع أولئك الأقوام، فجواب القسم يشير إليه أمران ، الأول ماحدث مع أولئك الأقوام ، والثاني مآل مشركي قريش، إذ لم يصبهم ماأصاب تلك الأقوام ، ولذلك فإن تقدير الجواب هو : لو شئنا أن تنتقم منهم مع ماهم عليه من قوة لفعلنا . ثم ذكر جل شأنه شواهد على انتقامه ممن هم أشد منهم قوة .

2 - كثـرة العطاء ابتلاء

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝٧ ٱلَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي ٱلْبِلَـٰدِ ۝٨ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ۝٩ وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ۝١٠ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِي ٱلْبِلَـٰدِ ۝١١ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ۝١٢ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ۝١٣ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ۝١٤ ﴾
الفجر: ٦ ــ ١٤

في هذا المقطع يدعو الله عبده ورسوله والذين آمنوا معه إلى أخذ العبرة والعظة من أقوام ذوي بأس شديد ، كذبوا بآيات الله فأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر. وهذه الدعوة لم تكن منقطعة عن الواقع الذي كان يعيشه المسلمون في مكة، فقد كابدوا الأمرّين من مشركي مكة ، وهم ، أي المؤمنون ، كانوا أضعف من يردوا عنهم أذى المشركين، فجاءت هذه الآيات لتبين لهم أنه لوأراد إهلاك المشركين لفعل ، وهو جواب القسم المحذوف، واستغنى الله عن ذكر هذا الجواب بذكر هذه الشواهد الدالة عليه ، وقد اختار الله من القرون التي أهلكها أشدها قوة وبأساً، ليلعم المؤمنون أن أعداء الإسلام لن يمتنعوا من أن يصيبهم الله بعذابه مهما امتلكوا من أسباب القوة والبطش.

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ ﴾ الفجر: ٦

الاستفهام في الآية استفهام تقريري ، بمعنى : قد رأيت ..والرؤية هنا رؤية قلبية لابصرية، لأن رسول الله والذين آمنو معه لم يروا عاداً بأبصارهم ، إنما علموا بأمرهم مما كان العرب يتداولونه من خبر ﴿ عاد ﴾، الذين سكنوا الجزيرة العربية ، والخطاب في الآية لمحمد ﷺ ﴿ ربك ﴾ والمراد عموم المؤمنين ، وهو قول القرطبي رحمه الله .

﴿ إِرَمَ ذَاتِ ٱلۡعِمَادِ ۝٧ ٱلَّتِي لَمۡ يُخۡلَقۡ مِثۡلُهَا فِي ٱلۡبِلَٰدِ ۝٨ ﴾ الفجر: ٧ – ٨

عادٌ: عَلَمٌ على قوم بعينهم قال تعالى : ﴿ وَأَمَّا عَادٞ فَأُهۡلِكُواْ بِرِيحٖ صَرۡصَرٍ عَاتِيَةٖ ﴾ الحاقة: ٦ . وهو علم أيضاً على بلدهم الذي عاشوا فيه، وهو ماتشير إليه الآيتان المذكورتان قبل قليل.

أما ﴿ إرم ﴾ فقد اخُتلف فيها، وليس هناك من وثيقة تسوغ الأخذ برأي من تلك الآراء ، وقد وجدت فيما قرأت من الدراسات اللغوية الحديثة مايشير إلى دلالة هذه الكلمة إشارة قوية، وكلام الله أجدر كلام بإعطائه حقه من الدرس العلمي الدقيق، وفيما يلي عرض لهذه القراءة :

ذُكِر في التاريخ أن الهكسوس عندما أُجبروا على مغادرة مصر، اتجهوا شرقاً ، وبنوا مدينة على قدر من الضخامة . وأطلقوا عليها اسم ولاخلاف بين علماء اللغات القديمة في أن الاسم يعني : مدينة السلام، أي أن ﴿ أورشليم ﴾ الكلمة مكونة من مقطعين، الذي يهمنا منهما هو المقطع الأول، ﴿ أور﴾ الذي يعني : مدينة ، ففي النقوش الأكادية بالقلم المسماري نجد كلمة ﴿ أور ﴾ بمعنى مدينة ، ولافرق بين الكلمتين سوى أن الضمة على الهمزة في { أُر} مُدت لتصبح واواً { أور} أي أن الأصل هو : أُر، وقد تُكسر الهمزة فتصبح :إِر، فمن أين جاءت الميم ؟

في لغتنا العربية مصطلح لغوي يُسمى التنوين ، وهو نون تنطق في آخر الاسم النكرة ، ولكنها لاتكتب إنما يرمز إليها بالحركة المضاعفة: فنقول هذا رَجُلٌ، إلا أننا في الكتابة العروضية لانكتفي بالحركة المضاعفة، بل نكتب صورة الصوت فنقول: رَجُلُنْ وهذه الظاهرة الموجودة في لغتنا كانت موجودة في اللغة الأكادية، إلا أن التنوين لديها بالميم لا بالنون ، أي أنه تمويم وليس تنوين ، فكلمة ﴿ إر ﴾ التي تغني: مدينة ، تصبح بالتمويم ﴿ إرم ﴾ . ولفظ ﴿ المدينة ﴾ لفظ عام ليس لبلدة أن تختص به دون غيرها من البلدان، فكل بلد مدينة ، ولاوجه لاختصاص بلدة دون غيرها بهذا اللفظ إلا إذا كانت هذه البلدة مشتملة على خاصية لاتوجد في غيرها من البلدان ، ومن ذلك تسمية ﴿ يثرب﴾ بالمدينة ، ووجه استحقاقها لهذه الكلمة أنها اختصت من بين جميع بلدان العالم بكونها محل سكنى خير خلق الله طراً محمد ﷺ ، أما موطن ﴿ عاد ﴾ فقد أطلق

عليه لفظ :﴿ إرم ﴾ الذي يعني المدينة ، لاشتمالها على مواصفات لم تكن موجودة في سواها من البلدان، وهو قوله تعالى ﴿ التي لم يخلق مثلها في البلاد ﴾

﴿ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ﴾ وصف لـ { إرم } أي أنها مدينة تم تأسيس أبنيتها على الأعمدة، والعماد جمع عمادة، والكل يعلم أن البناء إذا تم تأسيسه على العماد جعله ذلك متيناً وأشد ثباتاً في الأرض، بل إن نظام الأعمدة يتيح للإنسان أن يرتفع ببنائه ارتفاعاً كبيراً، وتصديق ذلك هو تلك العمائر الشاهقة وناطحات السحاب، التي أنشأها الإنسان في هذا الزمان .

﴿ لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَـٰدِ ﴾ ذِكْر لفظ الخلق قد يتوجه في الوهلة الأولى إلى خلق الله تعالى، وذلك لشيوع ارتباط هذه الكلمة به سبحانه، ولذلك نجد في كتب التفسير من يتوجه إلى تأويل ذلك بطول أجسام قوم عاد ، وذلك لدى من قال أن ﴿ إرم ﴾ هو جَدّهم،أو بتميز طبيعة الأرض التي بُنيت عليها مدينتهم، وذلك لدى من فسر﴿ إرم ﴾ بأنه اسم بلدهم .

وواقع الأمر أن فعل الخلق قد يُنسب إلى الإنسان في حدود ماخوَّله الله إياه، ومستند ذلك قوله تعالى... ﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ ﴾ المؤمنون: ١٤ فلو كانت الصفة مقصورة على الله لما أتى بها في صورة الجمع، وبناء على ذلك فإن القيمة العالية للكلمة تستوجب أن تتوجه دلالتها إلى عمل فائق الدقة والإتقان، وهو ماجرى استخدامه في البيان، إذ يُقال: إبداع خلاّق، أي أن قوم عادٍ قد بنوا مدينتهم بناء بلغ الغاية في الدقة والاتقان والبراعة ، إلى الحد الذي جعلها توصف بأنها ﴿ لم يخلق مثلها في البلاد ﴾.

موضــع الشاهد

إن ذكر ﴿ إرم ﴾ التي لم يخلق مثلها في البلاد لايحمل في ظاهره ما يُوافق الغاية التي ذُكِر قوم عاد من أجلها، وهي إخبار المسلمين بأن الله قادر على إهلاك المشركين على عِظَم ماهم عليه من قوة ومن سلطان ، ولذلك فإن موضع الشاهد هو ماتستلزمه هذه الصفة التي وصفت بها ﴿ إرم ﴾ وهي اشتمال عاد على قوة وسلطان بالغين جعلهم

قادرين على الوصول بإرمهم حد الإبداع الخلاق، وقد ورد في القرآن الكريم مايشير إلى هذه القوة ، وهو قوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ فصلت: ١٥ فقد بلغوا حداً من القوة جعلهم ينكرون أن يكون هناك من هو أقوى منهم ، ومن ملامح القوة التي كانوا عليها قول هود عليه السلام في خطابهم : ﴿ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً ﴾ الأعراف: ٦٩ وهذه الزيادة في الخلق من شأنها أن تُفْضي إلى زيادة في القوة . فهل امتنعوا بهذه القوة من أن يبطش الله بهم ؟ قال تعالى : ﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَـٰنِيَةَ أَيَّامٍ ۙ حُسُومًا ۖ فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ﴿٨﴾ ﴾ الحاقة: ٦ ــ ٨

﴿ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ﴿٩﴾ ﴾ الفجر: ٩

ثمود : هم قوم صالح عليه السلام . جابوا: قطعوا . قال المفسرون : أول من نحت الجبال والصخور والرخام هم ثمود . فماذا في هذه الصفة من شاهد على ماأراد الله بيانه لمحمد ﷺ وللمؤمنين ؟

لقد ذكر الله تعالى في كتابه مظاهر نعمته على ثمود ، وذلك على لسان صالح عليه السلام وهو قوله : ﴿ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾ ﴾ الأعراف: ٧٤

{فاذكروا آلاء الله} أي نعمه عليكم ، ومن تلك النعم أنه قيَّض لهم أسباب القوة والقدرة على بناء قصور في السهول ، وعلى نحت بيوت في الصخر الأصم، ووفقاً لنص هذه الآية فإن كلمة ﴿ جابوا ﴾ تعني وصلوا الصخر بالواد ، أي أن مساكنهم ممتدة في السهل والجبل ، وليس فيما اخترته من معنى الكلمة خروج بها عن أصل دلالتها ،

فالكلمة تدل على القطع ، وفي اللغة يُقال : رجل جواب إذا كان قَطَّاعاً للبلاد سيّاراً فيها، ومنه قول لقمان بن عاد في أخيه: جواب ليل، أي أنه يسري ليله كله لاينام . فالذي يجوب البلاد يقطعها بلداً بلداً ، ووجه قطعه لكل بلد أنه لايستقر في أي منها ، بل يمضي بهيكله في فضائها وكأنه يقطع بهيكل جسده ذلك الفضاء، وفي ذات الوقت كان قطعه المتتابع لكل بلد وصلاً لتلك البلاد بعضها ببعض وكأن مسيره فيها هو الخيط الذي ينتظم كل تلك البلاد.

□ أي أن كلمة ﴿ جابوا ﴾ اختيرت تحديداً لدلالتها على معنين: الأول قطع الحجارة من الصخر لبناء القصور في السهول ﴿ الواد ﴾ والثاني امتداد مساكنهم في الصخر وفي الواد . ولوحة ﴿ آلاء الله ﴾ لم تكتمل بعد ، فقد ذكر الله في كتابه من جملتها على لسان نبيهم هود عليه السلام : ﴿ أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾ ﴾ الشعراء : ١٤٦ – ١٤٩

وقد اقتصرت سورة الفجر على ذكر ﴿ جابوا الصخر بالواد ﴾ لما في ذلك من دلالة على ماقيضه الله لهم من أسباب القدرة التي تستلزم الدلالة على علو مستوى القوة لديهم ، فهل استطاعوا بما لديهم من قوة أن يمتنعوا من بطش الله بهم ؟

قال تعالى:﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُوا۟ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾ ﴾ القمر : ٣١

لقد كـانوا أهون على الله من أن يرسل عليهم جنداً من السماء ، فـلم يكن هلاكهم إلا بصيحة واحدة جعلتهم جميعاً كهشيم المحتظر أي كالعشب اليابس الذي تطؤه البهائم في الحظائر.

﴿ وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ ﴾ الفجر: ١٠

﴿ ذي الأوتاد ﴾ ذكر أهل التفسير في بيان ذلك قولين:

ذي الجنود الكثيرة ، وكانت لهم مضارب كثيرة يضربونها إذا نزلوا. وقيل : كان له أوتاد يعذب الناس بها كما فعل بآسية.

وقد تم التوجه إلى هذا التفسير لارتباط الوتد بشد الحبال . ولكنني سأتوجه إلى قراءة الكلمة وفقاً للسياق العام بعد إدراجه في الجدول التالي .

العلم	الصفة اللازمة له
عاد	﴿ إِرَمَ ذَاتِ ٱلۡعِمَادِ ۝٧ ٱلَّتِي لَمۡ يُخۡلَقۡ مِثۡلُهَا فِي ٱلۡبِلَٰدِ ۝٨ ﴾ الفجر: ٧ - ٨
ثمود	﴿ ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخۡرَ بِٱلۡوَادِ ۝٩ ﴾ الفجر: ٩
فرعون	﴿ ذِي ٱلۡأَوۡتَادِ ﴾ الفجر: ١٠

أ – في العمود الأول ذُكرالله ثلاثة أقوام : عاد ، ثمود ، فرعون ، أما الأولان فلم يكونا فردين بعينهما ، فكلٌّ منهما كان عَلَمَاً على قوم بعينهم ﴿ أمة ﴾ أما الثالث فهو عَلَمٌ على فرد بعينه . وسوف أعرض لما في ذلك من دلالة عند بيان قوله ﴿ ذي الأوتاد ﴾

ب- أما العمود الثاني فنلاحظ فيه أن الصفتين المذكورين قرين عاد وثمود تشيران إلى مدى قوتهم من خلال ذكر طبيعة وصفة مساكنهم ؛ فعاد لديهم إرم ذات العماد التي لم يُخلق مثلها في البلاد ، وثمود جابوا الصخر بالواد ، وهذا النسق المذكور في بيان شأنهما يستدعي أن تمضي دلالة ﴿ ذي الأوتاد ﴾ على نفس الوجه الذي مضت عليه الصفتان الأوليان ، وهو الدلالة على نظام البناء لدى فرعون ، ولكن هناك اختلاف يستوجب صرف ﴿ ذي الأوتاد ﴾ عن الوجه المذكور في الصفتين الأوليين ، وهو أن فرعون فرد واحد ، في حين أن عاداً وثمود كانا أمتين ، وحركة العمران في أي بلدٍ من البلدان ترسمه الأمة جميعاً ، ولايرسمها فرد واحد ، وهذا الوجه من شأنه أن يجعل خبر فرعون ناشزاً عن خبري عاد وثمود، ولكن النص القرآني نص حكيم لاتنفلت منه ضوابط البيان ، ولذلك فإننا سننظر إلى الشواهد الثلاثة من جهة فرعون ، لامن جهة عاد أو ثمود :

وُصِفَ فرعون بأنه ﴿ ذي الأوتاد ﴾ والأوتاد هي التي تُشد إليها الخيمة بالحبال فتجعلها ثابتة في مكانها ، فلا تقدر الرياح والعواصف على إزالتها ، وكذلك كان مُلْك فرعون ، لا أحد يقدر على أن يتعرض له في ملكه ، وقد بلغت به هذه القوة حد أن جعل نفسه إلهاً ورباً لأهل مصر، فإذا جئنا إلى ثمود وإلى عاد وجدناهم مدرجين في

نفس المسار ، وهو أنهم كانوا مشتملين على قوة وقدرة بالغتين ، ظهر أثرهما في طبيعة مساكنهم . وعلى ذلك فإن الخط العام الذي ينتظم الشواهد الثلاثة هو القوة والقدرة بما أنعم الله به عليهم من أسباب ذلك .

﴿ ٱلَّذِينَ طَغَوۡاْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ﴿١١﴾ ﴾ الفجر: ١١

الذين: اسم موصول مبني على الفتح في محل جر صفة لتلك الطوائف .

طغوا: الطغيان هو تجاوز الحد على أي وجه من الوجوه ، ومن ذلك قوله تعالى ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلۡمَآءُ حَمَلۡنَٰكُمۡ فِي ٱلۡجَارِيَةِ ﴾ الحاقة: ١١ ووجه طغيان الماء هو أن الماء النازل من السماء والماء النابع من الأرض كلٌّ منهما تجاوز الحد الذي يتناسب مع نظام حياة الإنسان وغيره من الأحياء ، وكان أثر هذا التجاوز هلاك كل من كان في الأرض ممن لم يكن في السفينة .

فالمسلم قد يطغى،ووجه طغيانه إسرافه في اقتراف الآثام،والكافر يطغى ووجه طغيانه إصراره على الكفر والمبالغة في التصدي لدعوة التوحيد والإقبال على الفواحش .

﴿ فَأَكۡثَرُواْ فِيهَا ٱلۡفَسَادَ ﴿١٢﴾ ﴾ الفجر: ١٢

الفاء تفيد الترتيب مع التعقيب ، أي أنه سبحانه لم يأخذهم بالعذاب عند مجرد وصفهم بالطغيان ، إنما أخذهم بعد أن بلغ بهم الطغيان حد الإكثار من الفساد في البلاد . فالثمرة قد تكون فاسدة ، ولكنها مع ذلك قد يجد فيها الإنسان ماينتفع به ، فإن تمادى صاحبها في تركها على الفساد القليل الذي هي عليه كثر فسادها فلم تعد لها أدنى قيمة . ومشركو قريش كانوا طغاة في تكذيب دعوة الإسلام وفي إصرارهم على ماورثوه عن آبائهم من شرك وأخلاق فاسدة ، ومع ذلك لم ينزل عليهم ما أنزله الله بعادٍ وثمود وفرعون ، لأن الطغيان الذي كانوا عليه لم يبلغوا به حد كثرة الفساد .

﴿ فَصَبَّ عَلَيۡهِمۡ رَبُّكَ سَوۡطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ ﴾ الفجر: ١٣

الفاء أيضاً جاءت لتفيد الترتيب مع التعقيب ، أي أن صب العذاب عليهم جاء عقب

إكثارهم الفساد ، وفي ذلك بلاغ للناس في كل زمان بأن كثرة الفساد نذيرٌ بنزول عذاب الله .

الفعل ﴿ صَبَّ ﴾ فعل يفيد الكثرة والوفرة ومن ذلـك قوله تعالى : ﴿ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴾ عبس: ٢٥ ووجه هذا الدلالة فيما حل بأولئك الأقوام أن العذاب الذي نزل بكل منهم عمهم جميعاً مثلما يعم الماء الجسد إذا صُبَّ عليه صباً, فالريح الصرصر العاتية التي سُلِّطت على عادٍ لم تغادر منهم أحداً ، والصيحة التي أُرسلت على ثمود قضت عليهم جميعاً ، وفرعون وجنوده انطبق عليهم الماء فأغرقهم جميعاً .

﴿ سَوْطَ عَذَابٍ ﴾ ذكر البعض أن كلمة ﴿ سوط ﴾ تعبير مجازي ، أراد به معنى الإيلام ، وهو نظر منطقي مؤسس على دلالة الكلمة . ومع ذلك فإن للكلمة وجهاً دلالياً آخر ، يستند أيضاً على الأحوال المرافقة للضرب بالسوط ومن تلك الأحوال :

1- محدودية الإصابة بالسوط ، فهو يصيب جزءاً من الجسد ، لا الجسد كله.

2-انتهاء إحساس الجسد بالسوط مع انقضاء زمن الضربة .

وموقع هاتين الدلالتين في خبر أولئك الأقوام :

1- أنماط العذاب عديدة ومتنوعة ، لم يصبَّها الله جميعاً على أولئك الأقوام ، إنما أصاب كلاً منهم بعذاب واحد ، ومحدود ، أهلك عاداً بريح تنزعهم نزعاً فتصرعهم . وأهلك ثموداً بصيحة أهلكت كل من سمعها ، وأهلك فرعون وجنوده بالغرق .

2 - وهؤلاء الأقوام انتهى إحساسهم بالسوط بعد موتهم أي بعد انقضاء زمن الضربة الموافق لمدة هلاكهم .

وكل ذلك أراده المولى عز وجل بقوله ﴿ سوط عذاب ﴾

﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾ ﴾ الفجر: ١٤

أُكِّدَت هذه الجملة بمؤكدين : إن واللام . وضمير الخطاب في الآية يتوجه إلى محمد ﷺ ويتوجه تبعاً لذلك إلى أتباعه الذين كانوا في زمانه وإلى أتباعه في كل زمان ، أي أن

الله عز وجل لبالمرصاد للطغاة في كل زمان ومكان ، إذا رآهم قد أكثروا الفساد في البلاد سلط عليهم سوط عذاب .

عن عمرو بن عبيد أنه قرأ هذه السورة عند أبي جعفر المنصور حتى بلغ هذه الآية ، فقال : ﴿ إن ربك لبا المرصاد ﴾ ياأبا جعفر . قال الزمخشري : عرّض له في هذا النداء بأنه بعض من توعده الله بذلك من الجبابرة ، فلله دره ! أي أسد فّراس كان بين يديه ؟

﴿ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴾ المرصاد على وزن مفعال ، مشتق من الفعل رَصَدَ يَرْصُد رَصْدَاً ورَصَدَا ً، وهي مادة لغوية تفيد المراقبة الدائمة مع دقة المتابعة ، فإذا كان الرصد لعدو من الأعداء فإنها مراقبة مترافقة مع الاستعداد للانقضاض على ذلك العدو، وهذا هو مدلول وصف الرحمن نفسه بكلمة ﴿ لبا المرصاد ﴾ قال تعالى ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ إبراهيم: ٤٢ فهو سبحانه كان على رصد لأولئك الأقوام ، وقد ذخر لهم ﴿ سوط عذاب ﴾ كانت شرارة انطلاقه إليهم أن يبلغ بهم الطغيان حد الإكثار من الفساد في البلاد.

علاقة القسم بشواهد الجواب

ابتدأ جل شأنه القسم في السورة بالفجر الذي جعله اسماً للسورة ، وقد بينا سمة العلاقة بين الفجر وبين ماتعدد من القسم ، وهو أن تجلي الله تعالى في الثلث الأخير من الليل الذي تؤدي فيه صلاة الفجر جعل الله له قدسية ، فانساقت هذه القدسية إلى الليل كله ، فالفجر هو الأساس ، فهل هناك من علاقة بينه وبين ما ذُكِر من الشواهد الدالة على جواب القسم ؟

نعم ، هناك علاقة ، ودليل ذلك فيما يلي :

قال تعالى في شأن عاد : ﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝٦ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا ﴾ الحاقة : ٦

زيادة اليوم ﴿ النهار ﴾ على الليل برقم دليل على أن العذاب وقع بهم نهاراً وانتهى أيضاً مع النهار الثامن . وفي هذا الشاهد قد لا نرى تصريحاً بالصبح ولكننا سنجد في الشواهد التالية مايوجه الاختيار إلى الصبح تحديداً :

قال تعالى في شأن ثمود : ﴿ وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ الحجر: ٨٢ – ٨٣. وفي شأن فرعون وجنوده قال تعالى لموسى عليه السلام ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾ الشعراء: ٥٢ وبالفعل ، اتبعهم فرعون وجنوده ، فمتى كان ذلك ؟ قال تعالى : ﴿ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴾ الشعراء: ٦٠ أي مع شروق الشمس ، ووجه دلالة ذلك على هلاكهم صباحاً هو أن خروجهم كان السبيل إلى هلاكهم غرقاً .

وللمزيد من التوثيق لهذا المعنى نذكر ماكان من قول الملائكة للوط عليه السلام : ﴿ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴾ هود: ٨١ وفي شأن قوم شعيب عليه السلام قال تعالى :﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩١﴾ ﴾ الأعراف: ٩١ وقدأجمل جل شأنه ذلك كله بقوله: ﴿ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴾ الصافات: ١٧٦ - ١٧٧

ولقد اتبع المصطفى ﷺ هذه السنة في غزواته ، واتبعها الصحابة من بعده ، وهو مارُوي عن أنس رضي الله عنه : **أن رسول اللّه ﷺ أتى خيبر ليلاً، وكان إذا أتى قوماً بليل لم يُغِرْ بهم حتى يُصبح – فلما أصبح خرجت اليهود بمساحيهم ومكاتلهم ، فلما رأوه قالوا : محمد واللّه ، محمد والخميس ، فقال النبي ﷺ { خربت خيبر، إنا إذا انزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين }** رواه مسلم والبخاري.

فما علاقة الصبح ﴿ الفجر ﴾ بهلاك أولئك الأقوام وسوى ذلك مما ذكر ؟

إنه التجلي الإلهي في الثلث الأخير من الليل ، والذي كانت صلاة الفجر حده الأعلى ، لما أخبر به جل شأنه من أنها صلاة مشهودة : ﴿ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾ ﴾ الإسراء: ٧٨، وتجليه سبحانه سبب نعمة أو نقمة ، أما النعمة فهي مايتفضل به على عباده المؤمنين، وأما النقمة فهي نزول العذاب بالكافرين،

وكل ذلك حدث مع الأقوام المذكورين في هذه السورة ، ففي خبر فرعون شق الله البحر، وهذا الانشقاق كان بسبب تجلي قدرة الله وأمره ، فكان الانشقاق رحمة بموسى ومن معه ، إذ كان سبيل نجاتهم من فرعون وجنوده ، وفي ذات الوقت كان ذلك الانشقاق نقمة من الله على فرعون وجنوده ، إذ كان سبباً لغرقهم جميعاً .

أي أن ﴿ الفجر ﴾ ساعة مباركة على من آمن ، فكان من الحكمة أن يجعل المؤمن الفجر منطلقاً لغاياته ، فإذ أراد أمراً فليقصده مع الفجر ، وليسأل ربه أيضاً مع الفجر، لأن ماقضاه الله من تجلٍّ في ذلك الوقت يجعل الدعاء أقرب إلى الإجابة ، ويجعل السعي في طلب ماأحله الله أقرب إلى النفاذ وحصول المراد، وهو معنى قوله ﷺ : **{ بورك لأمتي في بكورها }** .

3- الكرامة والإهانة في رأي الإنسان

﴿ فَأَمَّا ٱلۡإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكۡرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَكۡرَمَنِ ١٥ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيۡهِ رِزۡقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَهَٰنَنِ ١٦ ﴾ الفجر: ١٥ – ١٦

ليس لنا أن نَفْصِل هذا المقطع عن السابق ، فالنص القرآني نص متلاحم الأجزاء، ووجه هذا التلاحم الحاصل بين المقطعين هو أن هذا المقطع جاء لبيان العلة التي قادت أولئك الأقوام إلى أن يكونوا من الهالكين ، وقد تم الربط بين المقطعين بحرفين : {الفاء ، أما } أما الفاء فتفيد الترتيب الذي يفيد معنى التفصيل بعد الإجمال ، لأن مابعدها جاء لاحقاً لما قبلها ، فالمذكور في هذا المقطع حاصل لدى أولئك الأقوام قبل هلاكهم .

أما : حرف شرط وتفصيل وتوكيد ، والتفصيل لايكون إلا بعد إجمال ، ومظهر التفصيل في هاتين الآيتين هو أن الإنسان تعتوره حالتان في الحياة الدنيا : سعة الرزق أو ضيقه ، وهو أمام ذلك على ظنين : الإكرام أو الإهانة :

﴿ فَأَمَّا ٱلۡإِنسَٰنُ ﴾ حيثما ذُكِرَ الإنسان في القرآن فإنه لايتوجه إلى كافر أو مؤمن تحديداً ، إنما يتوجه إلى الإنسان عموماً ، أي إلى الفطرة التي فُطِر عليها كل إنسان، ولذلك فإن الوصف المذكور في الآيتين يسري على كل إنسان ، وليس لإنسان أن يخرج عن إطاره إلا باتباع التوجيهات الربانية ، وشاهد ذلك قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ خُلِقَ

هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ ﴾ المعارج: ١٩ – ٢١
فالآيات تذكر بعضاً مما فُطِر عليه الإنسان ، إلا أن الله جعل له سبيلاً للخلاص من ذلك ، وهو قوله بعد تلك الآيات مباشرة : ﴿ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ المعارج: ٢٢ – ٢٣ مع جملة أخرى من التوجيهات ، ذكرها المولى عز وجل بعد هاتين الآيتين .

﴿ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ ﴾

ما : زائدة للتوكيد .

ابتلاه : الابتلاء هوالاختبار،والاختبار يكون بالخير، ويكون بالشر، قال تعالى﴿ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ الأنبياء: ٣٥
فالله عز وجل يكرم هذا الإنسان أو ذاك وينعمه ليختبره ، أيعرف حق الله فيما أنعم به عليه أم يطغى . ويبتليه بالشر ليرى أيصبر على ما أصابه من شر أم ينقلب على عقيبيه .

﴿ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ ﴾

الفاء واقعة في جواب الشرط ﴿ إذا ﴾ وقد قر ن المولى عز وجل بين الفعلين بحرف العطف الواو، فإذا نظرنا إلى الحالة الأخرى للإنسان وجدنا ذكراً لفعل واحد وهو ﴿ فقدر عليه رزقه ﴾ وهو الضد المقابل لقوله ﴿ فأكرمه ونعمه ﴾ وهو مايستلزم أن يكون مدار الفعلين هو رزق الإنسان، وبيان ذلك فيما يلي:
الكرم مقرون بالعطاء ، والله عز وجل أكرم الأكرمين ، فلا يخلو الإنسان حتى وهو فقير من عطاء الله ، ولذلك لم يذكر جل شأنه لفظ الكرم مع قوله ﴿ فقدر عليه رزقه ﴾ لأنه أراد بقوله ﴿ فأكرمه ﴾ العطاء الممتد ، ثم أراد جل شأنه بيان عظم فضله على هذه الإنسان فأتى بالفعل ﴿ ونعمه ﴾ التفاتاً إلى أن الإنسان قد يكون ذا رزقٍ واسع وهو مع ذلك غير متنعم بذلك الرزق ، وأقصد بذلك أنه لايجد هناء ولاطمأنينة بل هو في قلق دائم ، فإذا رأيته لم تر في وجهه نضرة النعيم ، ولذلك كان في ذكر ﴿ ونعّمه ﴾ استكمال لبيان فضل الله على الإنسان .

﴿ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَكۡرَمَنِ ﴾

﴿ ربي ﴾ أُضيفت كلمة : رب إلى ياء المتكلم ، وفي ذلك إشارة إلى أن هذا الإنسان مقر بأن الله ربه ، وكذلك الإنسان الذي قُدِر عليه رزقه مقرٌّ بأن الله هو ربه ، ولم يرد للكفر ذكْرٌ في هذا التكوين ، وسبب ذلك أن الله عز وجل نظر إلى الأصل لا إلى الفرع ، فالأصل في وجود الإنسان هو الإيمان بأن الله ربه ، وقد كان الناس في مبدأ أمرهم على هذا الأصل ، ثم أتتهم الشياطين فاجتالتهم ، وابتعدت بهم عن هذا الأصل . أي أن الله عز وجل نظر إلى أصل من الأصول التي فطر عليها الإنسان .

﴿ أَكْرَمَنِ ﴾ حذفت ياء المتكلم واسْتُغنى عنها بالكسرة ، وقد علمنا أنا كل مظهر بياني في القرآن لا يأتي خلواً من الدلالة ، فما دلالة حذف ياء المتكلم . ؟

الياء والكسرة حرف واحد ، ولذلك يقال : الياء كسرة طويلة ، والكسرة ياء قصيرة ، وبالنظر إلى أن الكلمة ﴿ أكرمن ﴾ جاءت إقراراً من الإنسان بأن الله أكرمه، فإن ترجمة هذا الإقرار في القرآن بتقصير الياء فيه إشارة إلى قصر ذلك الإقرار ، بمعنى أنه دائماً يجد في نفسه طلباً لشيء لايجده أو بمعنى آخر أنه لايقنع بما في يديه ، فإحساس الكرامة في ظنه هو أن يجد أبداً مايتوق إليه ، وقد قال ﷺ :

{ لو كان لابن آدم واديان من مالٍ لابتغى وادياً ثالثاً ، ولايملأ جوف ابن آدم إلا التراب } رواه مسلم.

فكان قصر الياء في الياء ﴿ أكرمنِ ﴾ إشارة إلى تقاصر إقرار الإنسان بإكرام ربه له ، في حين أننا نجد إثباتاً لياء المتكلم في كلمة ﴿ ربي ﴾ وفي ذلك إشارة إلى إقراره الخالص بأن الله ربه ، فهو لايجعل معه رباً آخر .

وكذلك هو الشأن ، مع كلمة ﴿ أَهَٰنَنِ ﴾ كان تقصير ياء المتكلم ترجمة لحال ذلك الإنسان الذي قُدِر عليه رزقه ، فهو إذ لم يجد رزقاً واسعاً وجد غير ذلك حاضراً لديه : إما لقيمات يسُد بها رمقه أوصحة في جسده أو هماً معاً فهو لايعلن أن الإ هانة طويلة ، أي مطلقة ، بل هي إهانة متقاصرة ، وهو ماتم التعبير عنه بقصر الياء في ﴿ أهانن ﴾ .

الآفاق البيانية للمقطع

1-علاقته بخبر أولئك الأقوام

ذكرت فيما سبق أن هذا المقطعع جاء لبيان علة انبعاث أولئك الأقوام إلى الطغيان، ومفتاح هذا البيان هو قوله تعالى :﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧ ﴾ العلق : ٦ – ٧ . وذلك أن تلبس الإنسان بأسباب الغنى في نفسه وفي ماله وفي رهطه من شأنه أن يقوده إلى الطغيان ، ولذلك نجد في قصص الأنبياء أن أول وأشد الناس عداءً لدعوةالأنبياء هم ﴿ الملأ ﴾ أي أولئك الذين بأيديهم المال والسلطان ، وهو ماكانت عليه عاد وثمود وفرعون :

أما عاد فقد بلغ بهم الغنى والتنعم حداً جعل بلدهم ﴿ لم يخلق مثلها في البلاد ﴾ فقد أكرمهم الله ونعمهم، فاستكبروا في الأرض : ﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ﴾ فصلت: ١٥ . والإنسان لاينساق إلى الاستكبار إلا إذا كان مشتملاً على القوة والغنى والسلطان . وأما فرعون فاشتهار خبره يغني عن بيان ماكان في يديه من آثار إكرام الله وإنعامه ، ويكفينا أن نذكر أنه جَرُؤ على ادعاء الألوهية والربوبية.

وهنا قد يقال : إن هؤلاء الأقوام ليس لهم من رابط يربطهم بدلالة هذا المقطع ، لأن الإنسان المذكور في الآيتين مقر بأن الله ربه . وهؤلاء الأقوام كانوا ينكرون هذه الربوبية . وهو قول صحيح حال النظر إليه في حده الظاهر ، وأما إن توجه النظر إلى الأصل الذي جُبل عليه الإنسان فسنجد أن كفر أولئك الأقوام إنما قام على تلك الفطرة التي يشتمل عليها الإنسان ، وهي الاغترار بسعة مايجده لديه من رزق ونعمة ﴿ فأكرمه ونعمه ﴾ والاغترار يقود إلى الاستكبار ، والاستكبار يقود إلى الكفر، ومن شواهد ذلك أن إبليس نال من كرم الله في العبادة ماجعله يُلقب بطاوس الملائكة، وعندما أُمر بالسجود لآدم عليه السلام مع جملة الملائكة أبى أن يسجد ، وكان دافعه إلى ذلك عِظَم ماكان يجده في نفسه من كرم الله ، فقاده ذلك إلى الغرور ، فدفعه الغرور بالتالي إلى الاستكبار ﴿ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ ﴾ الأعراف: ١٢ ، فأفضى به الاستكبار إلى الكفر . ومن شواهد الاغترار بالنعمة صاحب الجنتين ، الذي استعظم ماكان يجده في يديه من كرم الله :

﴿ جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا ۚ وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا ﴾ الكهف: ٣٢ – ٣٣ فدفعه عظم مايجده في يديه من كرم الله إلى الكفر، فقال لصاحبه ...﴿ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَٰذِهِ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا ﴿٣٦﴾ ﴾ الكهف: ٣٥ - ٣٦ فنجد أنه مع إقراره بأن الله ربه انساق إلى الكفر بالساعة ، بل أن اغتراره بما أكرمه الله به ونعمه جعله يجزم بأن الله سيعطيه خيراً منها إن رُدَّ إليه يوم القيامة ، وكأنه عزيز على الله حتى وهو كافر به .

فهذا الخُلُق لدى الإنسان ، أي الاغترار بما يجده في يديه من كرم الله ، هو الأساس الذي قام عليه خبر أولئك الأقوام .

2- علاقته بسبب النزول

ذكرت فيما سبق أن الله تعالى ساق خبر أولئك الأقوام ليبين لعبده ورسوله ولأمته من ورائه أن قوة أهل الشرك وسطوتهم بأهل الإيمان ليس بخافٍ عليه سبحانه ، وأنه لو أراد أن يهلكهم لفعل ، فقد أهلك من هم أشد منهم قوة ، عاداً وثموداً وفرعون ، ثم ذكر في هاتين الآيتين أن الأساس الذي قام عليه استكبار أولئك الأقوام هو خُلُق : أكرمن وأهانن ، ولأن هذا الخُلق خُلق جُبل عليه تكوين الإنسان كان لزاماً سريان هذا النظام على المؤمنين ، وهو ماتم النظر فيه ابتداء إلى المؤمنين في العهد المكي، إذ أن الكثير منهم كان يؤمن بأن الله أكرمه بالإيمان ﴿ أكرمن ﴾ فإذا رأى هوانه وذلته أمام المشركين تساءل في نفسه : كيف يسمح الله لمن أكرمه بالإيمان أن تلحقه ذلة من قِبَل المشركين﴿ أهانن ﴾ ؟

وبما أن هذه الحالة حالة فطرية فإن كل مسلم عرضة للوقوع فيها ، وقد وقع فيها عمر بن الخطاب رضي الله عنه عندما رأى الإهانة للإسلام والمسلمين في الشروط التي وافق عليها النبي ﷺ في صلح الحديبية ، فدار بينه وبين رسول الله الحوار التالي :

يارسول اللّه ، ألسنا على الحق وهم على باطل؟ قال : { بلى } قال : أليس قتلانا في الجنة وقتلاهم في النار ؟ قال { بلى } قال : فلم نُعطي الدنية في

دينا ونرجع ولـمَّا يحكم اللَّه بيننا وبينهم ؟ فقال : { يابن الخطاب إني رسول اللَّه ، ولن يُضيعني أبداً } .

لقد نسى عمر رضي الله عنه في فورة مايجده في نفسه من كرامة الإسلام أن يقف حيث وقف رسول الله ﷺ ، وقد ندم لاحقاً على ذلك وعمل أعمالاً، استغفاراً مما كان منه .

4- الكرامة والإهانة في دين اللَّه .

﴿ كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾ ﴾

الفجر: ١٧ – ٢٠

إنّ الإنسان أمام ربه على حالين لاثالث لهما : { أكرمن ، أهانن } وهما ضدان ، وكل منهما تندرج تحته قائمة بالسمات التي تُعَدّ تجسيداً لمعنى الكرامة أوالإهانة ، ولأن الشيء يُعرف بالضد كما يقال فإن ذكر الصفة في أحد المحورين يشير مباشرة إلى الضد المقابل لها في االمحور الآخرى ، وهو ماأُدْرِجت فيه آيات هذا المقطع التي اقتصرت على ذكر الصفات الموجبة لكون الإنسان مهاناً عند الله ، وتركت ذكر الصفات الموجبة للكرامة لدلالة ماذكر عليها :

{ لاتكرمون اليتيم } ⟵ تكرمون اليتيم

{ لاتحاضون على طعام المسكين } ⟵ تحاضون على طعام المسكين

{ تأكلون التراث أكلاً لـمَّاً } ⟵ لاتأكلون التراث أكلاً لما

{وتحبـون المال حبـاً جَـمَّاً } ⟵ لاتحبون المال حباً جماً

فالقائمة الأولى قائمة الإهانة ، والثانية قائمة الكرامة . واختياره سبحانه تجسيد لمعنى الربوبية ، انطلاقاً من قوله ﷺ : **{ للَّه أرحم بعباده من هذه بولدها }** رواه البخاري . يقصد : هذه الأم بولدها ،وذلك أن الوالد الشفيق إذا أراد أن يوصي ولده جعلته شفقته يتوج ابتداءً إلى ذكر ماقد يسوؤه . ولله المثل الأعلى ، فهو أرأف بعباده من

الوالدة بولدها ، ولذلك اختار ذكر قائمة الإهانة ، لأن كل صفة مذكورة فيها صفة مهلكة ، وهو مامن شأ،نه أن يجعل الإنسان مهاناً عند الله .

وهذه التوجيهات المذكورة في هذا المقطع توجيهات مقصورة على من آمن بالله ورسوله ، في حين أن السياق العام لم يذكر كفاراً ولا مؤمنين ، إنما ذكر الإنسان ، وهو لفظ ينساق إلى الناس جميعاً ، مؤمنهم وكافرهم ، فكيف تم التجاوز عن هذه الوجه ؟ ؟

لم يكن هناك من تجاوز ؛ لأن الله عز وجل نظر إلى الأصل الذي كان عليه الإنسان، وهو عبادة الله ، فجاء البيان مراعياً لذلك الأصل ، حتى أنه عندما ذكر أمر عاد وثمود وفرعون لم يذكره بكفر أوشرك إنما ذكره من وجه ضلال الإنسان عن عبادة الله عبر ماجُبل عليه من دلالة : ﴿ أكرمن ، أهانن ﴾ . فالسياق يذكر الإنسان من جهة الأصل الذي خُلق له وهو عبادة الله وقد جاءت هذه الآيات مراعية لذلك الأصل ، فلم تذكر كفراً، ولم تذكر إيماناً .

﴿ كَلَّا بَل لَّا تُكۡرِمُونَ ٱلۡيَتِيمَ ﴿١٧﴾ ﴾ الفجر: ١٧

● كلا : حرف ردع ، وإن شئت قلت حرف نفي ، والمعنى أن الله ينفي أن تكون سعة الرزق في الدنيا أو ضيقه دليلاً على الكرامة والإهانة عند الله ، ثم أكد ذلك النفي باستخدام حرف العطف ﴿ بل ﴾ الذي يفيد الإضراب عما سبقه وإثبات مابعده ، فما بعد ﴿ بل ﴾ هو مناط الإهانة ﴿ لاتكرمون اليتيم ﴾ لدلالة هذه الصفة على الضد المقابل لها الموجب للكرامة ، وهو : تكرمون اليتيم .

﴿ لَّا تُكۡرِمُونَ ٱلۡيَتِيمَ ﴾ إذا كانت الآية قد ذكرت الصفة من جهة مايهين الإنسان ، فإني سأعرض للصفة من جهة مايحقق الكرامة ، وهي : تكرمون اليتيم :

إن المسلم إذا قدَّر الله له أن يكفل يتيماً ، ثم لم يظلمه ولم يأكل ماله ، كان ذلك كرامة له عند ربه ، وحدُّ هذه الكرامة يظهر يوم القيامة نجاة من النار وفوزاً بالجنة، بل وفي أعلى درجات الجنة ، لقول رسول الله ﷺ **{ أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا – وأشار بالسبابة والوسطى }** . رواه البخاري وأبو داود والترمذي. وبما أن منظومة الثواب والعقاب مؤسسة على عمل الإنسان ، فإن الثواب العظيم المرصود لهذا

العمل أو ذاك يستوجب أن يكون إثم مخالفته أيضاً عظيماً يجعل صاحبه أقرب إلى النار ، قال تعالى : ﴿ وَءَاتُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰٓ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ وَلَا تَتَبَدَّلُواْ ٱلۡخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِۖ وَلَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَهُمۡ إِلَىٰٓ أَمۡوَٰلِكُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبٗا كَبِيرٗا ٢ ﴾ النساء: ٢

الحوب : الإثم والذنب ، وصفه جل شأنه بصفة ﴿ كبير ﴾ فهو بذلك كبيرة من الكبائر ، بل إنها كبيرة توجب دخول النار بالنظر إلى أن كفالة اليتيم توجب للكافل دخول الجنة . فإكرام اليتيم يوجب الكرامة عند الله ، وعدم إكرام اليتيم يوجب المهانة عنده سبحانه . وقد ذكرت الآية لفظ الإكرام ولم تذكر لفظ الكفالة ، لأن الإكرام أوسع في الدلالة ، حيث أن الإكرام لايقف عند حد الكفالة ، بل ينساق إلى كل من يصادف يتيماً فيكرمه بكلمة طيبة أو بخدمة عابرة أو حتى بمسحة على رأسه . ثم إن الكفيل قد يسيء معاملة اليتيم في بيته ، فيحبط بذلك عمله، فجاءت كلمة : تكرمون، لتستوعب كل تلك الدلالات .

ومجيء البيان في صيغة النفي فيه إشارة إلى أن هذه الصياغة هي مفتاح كرامة من يكرم اليتيم ، و تفصيل ذلك فيما يلي:

لو كان التعبير بقول : الذين يكرمون اليتيم ، لذهب الفكر إلى أن الجملة تذكر فقط أولئك الذين يكرمون اليتيم، أما التعبير بلفظ ﴿ لاتكرمون اليتيم ﴾ فيتوجه إلى كل من لايجد في نفسه ميلاً إلى إكرام اليتيم ، وفي ذلك إشارة إلى أن من لا يجد في نفسه ذلك الميل ليس من أهل الكرامة عند الله ؛ لأنه من أصحاب القلوب القاسية ، وقد قال تعالى ﴿ فَوَيۡلٞ لِّلۡقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم ﴾ الزمر: ٢٢ أومن اللئام الذين ذُكروا في المثل : كالأيتام على مأدبة اللئام .

وهؤلاء وأولئك لاتجدهم إلا ممن يستمرئون السوء في القول وفي الفعل ، وبذلك كانت دلالة ﴿ لاتكرمون اليتيم ﴾ مفتاحاً يدل على عموم الشخصية .

﴿ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ ١٨ ﴾ الفجر: ١٨

﴿ولاتحاضون﴾ الحضُّ هو الحثُّ، وقد قيل في معناها : ولايأمر بعضكم بعضاً . إلا أنه قول فيه نظر ؛ لأن الحض لايبلغ مبلغ الأمر ، وقد قال تعالى ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ

بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِ ﴾النحل: ١٢٥ فالحض ، إذاً ، هو الدعوة إلى فعل الشيء مع مراعاة الأحوال النفسية والعقلية،أو بلغة هذا الزمان : الحض هو التشجيع .

والفعل ﴿ تحاضون ﴾ أصله : تتحاضون ، حذفت إحدى التاءين لدلالة الكلام عليها، هذا مما ذُكر في كتب التفسير ، وهو قول صحيح ، إلا أن وروده في القرآن لايقف به عند حد الشكل اللغوي ، بل يتجاوزه للدلالة على معنى حكيم ، ومستند هذه الدلالة أن حذف جزء من الكلمة أو من الجملة يُفضي إلى سرعة أدائها ، فكان هذا التسارع الذي يُفضي إليه حذف التاء دعوة من الله إلى الإنسان ﴿ المسلم ﴾ للتسارع إلى إطعام المسكين ، أو بلفظ آخر : الحرص الشديد على إطعام المسكين ، ومبعث الدعوة إلى ذلك هو ماادخره الله من كرامة لمن يطعم مسكيناً ، فلقد غفر الله لرجل سقى كلباً بلغ منه العطش مبلغاً .

☐ وقد استخدم أسلوب النفي في الآية لنفس الغاية التي استخدم لها في الآية السابقة ، وهي أن صاحب الكرامة عند الله هو ذاك الذي يجد في نفسه ميلاً إلى إطعام المسكين، وأما الذي لايجد في نفسه ذلك الميل فهو ليس من أهل الكرامة عند الله .

☐ ونلاحظ أن الآية لم تذكر الفعل ذاته ، وهو : لاتطعمون المسكين ، إنما ذكرت ماهو أدنى من ذلك ، وهو دعوة الغير إلى طعام المسكين ، ووجه البيان في ذلك أمران :

الأول : من المسلَّم به أن من يدعو الغير إلى إطعام المسكين لاتجده خالياً من فعل ذلك ، خصوصاً إذا علمنا أن التضعيف في الفعل يفيد المبالغة فيه ، أي أنه يبالغ في حض غيره على إطعام المسكين .

الثاني: ثم إن في ذلك بلاغاً من الله بأن الثواب العظيم ليس حكراً على من يطعم المسكين، بل هو ماض أيضاً إلى من يدعو ﴿ يحض ﴾ إليه،وقد قال ﷺ **{ من دل على خير فله مثل أجر فاعله }** رواه البخاري ومسلم .

☐ فإن لم تكن لك قدرة على إطعام مسكين، فإن الله عز وجل جعل لك سبيلاً إلى التعلق بهذه الكرامة الكبرى ، وهو حض من يملك مالاً وسعة في الرزق على إطعام المسكين .

﴿ وَتَأۡكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكۡلٗا لَّمّٗا ﴿١٩﴾ ﴾ الفجر: ١٩

هذه الآية هي الصفة الثالثة من الصفات الأربع الموجبة لهوان ومهانة الإنسان عند ربه ، ومن جميل التقسيم في آيات هذا المقطع أن الصفتين الأوليين أُدرِجتا في أسلوب النفي ﴿ لاتكرمون ، لاتحاضون ﴾ وقد وقفنا على الوجه البياني من استخدام هذا الأسلوب ، أما هذه الآية والآية التالية لها فقد صيغتا في إطار الجملة المثبتة ﴿ وتأكلون ، وتحبون ﴾ وذلك أنهما تذكران صفتين ، كلٌّ منهما لها حدان : حد فطري لاإثم فيه، وحد يُعد أساساً لكل إثم ، وبيان ذلك فيما يلي :

﴿ وتأكلون التراث ﴾ التراث : مشتق من الفعل: ورث ، فأصل الكلمة هو : الوراث ، قُلبت الواو تاء فأصبحت التراث ، وقد وجَّه أهل التفسير هذه الكلمة إلى مايرثه الإنسان من أحد أهله إذا مات ، وحيث إن الصفة جاءت في معرض ذكر مايوجب الإهانة عند الله كان لزاماً ذِكْر مايعد مخالفاً للحق ، فذكروا ماكان يفعله أهل الجاهلية من عدم توريث النساء والصبيان وأكل حقوقهم .

ولكن السياق سياق عام يتحدث عن عموم الإنسان ، لاعمَّن كان كافراً من الناس. وهو مايستلزم توجيه كلمة ﴿ التراث ﴾ إلى وجه آخر، ولكنه ليس ببعيد عن الوجه السابق الذي تداولته كتب التفسير ، فإن كان الميراث بمعناه الخاص يتوجه إلى مايحوزه الإنسان من بعض أهله بعد موته ، فإن التراث يتوجه إلى مايرثه الجيل الإنساني من الجيل السابق له ، فالميراث هنا هو الميراث الإنساني لاالميراث الشخصي، ومن هذا الوجه قال أحد العلماء لأحد الملوك لو دامت لغيرك ماوصلت إليك ، قال تعالى في فرعون وجنوده بعد إهلاكهم : ﴿ كَمۡ تَرَكُواْ مِن جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٖ وَمَقَامٖ كَرِيمٖ ﴿٢٦﴾ وَنَعۡمَةٖ كَانُواْ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَۖ وَأَوۡرَثۡنَٰهَا قَوۡمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾ ﴾ الدخان: ٢٥ ـ ٢٨

فالإنسان أجيال متتالية في الأرض، وكل جيل يأكل من خيرات الأرض التي ورثها عن الجيل السابق ، ولهذا فإن قوله : ﴿ وتأ:كلون التراث ﴾ صفة تتوجه إلى الإنسان مطلقاً، وهي صفة تمثل الحد الفطري الذي لامذمة فيه .

﴿ أَكۡلٗا لَّمّٗا ﴾ هذا هو الحد الذي يبلغ به الإنسان مقام الإهانة عند الله ، وقد جاء في بيان هذا الوجه أن قوله ﴿ لـمّاً ﴾ يعني به الجمع بين الجلال والحرام ، وهو معنى وارد إلا أنه فرع من أصل، إذ أننا قد نجد إنساناً ﴿ مسلماً ﴾ ليس في ماله من حرام ومع ذلك تراه تسري عليه هذه الصفة . فكيف يكون ذلك ؟

نبدأ في بيان ذلك بقوله تعالى : ﴿ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ الأعراف: ٣١ فمن رحمة الله بعباده أنه لم يحرم عليهم الإسراف في الطعام ، بل اكتفى بقول ﴿ إنه لايحب المسرفين ﴾ وهو قول مضى عليه البيان مع جملة من الصفات التي لايحب الله أصحابها ، وهي :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ ﴾ البقرة: ١٩٠

﴿ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾ ﴾ البقرة: ٢٧٦

﴿ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾ آل عمران: ٣٢

﴿ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٧﴾ ﴾ آل عمران: ٥٧

وذكر أيضا في جملة من لا يحبهم : المختال الفخور ، الخوان الأثيم ، المفسدون ، المستكبرون ، الفرحين . وكل ذلك إنما هو من كبار الآثام ، فكان ذكر المسرفين في الطعام في جملة أصحاب هذه الصفات قرينة تشير إلى أن المسرف في الطعام مدرج في جملة أولئك الآثمين ، إلا أن الشريعة لم تلتفت إلى الإسراف في الطعام على أنه إثم كبير، وفي ذلك إشارة إلى أن الإسراف في الطعام لا يحمل في ذاته ما يجعله محرماً، إنما تم النظر إلى مايحدثه الإسراف في الطعام من فساد في ذات الإنسان ، وقد استخدم رسول الله ﷺ نفس المنهج في ذكر الإسراف في الطعام ومن ذلك قوله: **عن أبي كَريمَةَ المِقْدام بن معْدِ يكَرب رضي اللَّه عنه قال: سمِعتُ رسول اللَّه ﷺ يقول { مَا ملأَ آدمِيٌّ وعَاءً شَرّاً مِنْ بَطنِه ، بحسْبِ ابن آدمَ أُكُلاتٌ يُقِمْنَ صُلْبُهُ، فإنْ كَانَ لا مَحالَةَ ، فَثُلُثٌ لطعَامِهِ، وثُلُثٌ لِشرابِهِ ، وَثُلُثٌ لِنَفَسِه }** رواه الترمذي وقال: حديث حسن

أُكُلاتٌ: أَيْ لُقمٌ.

وعن أبي جحيفة رضي اللّه عنه قال :

{ أكلت ثريداً بلحم سمين، فأتيت النبي ﷺ وأنا أتحشى فقال: { اكْفُفْ عليك من جشائك أبا جحيفة ، فإن أكثر الناس شبعاً في الدنيا أطولهم جوعاً يوم القيامة } فما أكل أبو جحيفة بملء بطنه حتى فارق الدنيا...

فماذا في الإسراف في الطعام من فساد للإنسان ؟

أولاً : الفساد في البدن ، وذلك أن الإكثار من الطعام يجعل أجهزة الهضم في شغل دائم ومضاعف ، وهو ماقد يسبب لها الفشل المبكر، فيصاب الإنسان بالقرحة في المعدة أو بفشل في البنكرياس ...وسوى ذلك ، هذا بالإضافة إلى السمنة وتراكم الدهون في الجسد .

ثانياً : الفساد في النفْس ، وهو الوجه الذي تأسس عليه قوله تعالى: ﴿ إنه لايحب المسرفين ﴾ وذلك أن الموصوف بالنهم ، أي الشراهة في الأكل : أي الإسراف فيه، يجعله ذلك ضعيف النفس أمام رغباته ، لأن استسلامه السلس لشهوة الطعام يطبع النفس بطابع الضعف أمام هواها، وهذا هو أساس كل مخالفة لأمر الله ونهيه ، وكأني بهذا المعنى يقودني إلى القول بأن الله عز وجل لم يفرض الصيام إلا لعلاج النفس من هذه العلة ، وهو قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ ﴾ البقرة: ١٨٣

□والتقوى هي أن تردَّ نفسك عن إتيان مانهى الله عنه، وأن ترغمها على إتيان ماأمر الله به ، فيأتيك الصيام فيمنعك من مطاوعة شهوتي البطن والفرج شهراً كاملاً، فتخرج منه وقد تدربت على رد نفسك عن هواها، وهو مامن شأنه أن يحقق لديك قدْراً من التقوى...

□□ وعلى ذلك فإن قوله تعالى ﴿ أكلاً لماً ﴾ يعني به أكلاً واسعاً ، وذلك أن المسرف في الأكل يلمّ كل ماتتوق إليه نفسه، في النوع وفي مقدار ماقد تستوعبه بطنه، أي أن قوله تعالى ﴿ وتأكلون التراث أكلاً لماً ﴾ يذكر أساساً من الأسس التي تحكم حياة الإنسان وتمضي بها في سبيل الفساد، وهو ما من شأنه أن يجعل الضد من هذه الصفة أساساً

يحكم حياة الإنسان ، ويمضي بها في سبيل التقوى، وقد قيل: أقلل طعامك تحمد منامك، وعلى هذا القول نبني قولنا: أقلل طعامك تحمد مقامك..

﴿ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾ ﴾ الفجر: ٢٠

هذه الآية تمضي على نفس البناء الذي مضت عليه الآية السابقة، وكنت قد أشرف من قبل إلى حسن التقسيم الواردة في ذكر الصفات الأربع المهلكة للإنسان، والمفضية به إلى الضغيان والفساد، فقد صيغت الآيتان الأوليان صياغة منفية﴿ لاتكرمون، لاتحاضون ﴾وصيغت هذه الآية والآية السابقة لها صياغة مثبتة :﴿ وتأكلون ، وتحبون ﴾

وذِكر المال في هذه الآية بعد ذكر التراث في الآية السابقة يوجب أن يكون هذا غير ذاك ، وهو مامن شأنه أن يرد تأويل ﴿ التراث ﴾ بالمال الذي يرثه الإنسان ممن مات من أهله ، فالتراث شيء والمال شيء آخر ، كل منهما يذكر محوراً مخصوصاً في واقع حياة الإنسان .

وهذه الآية مثل سابقتها تذكر للصفة حدين : حد فطري لاإثم فيه وهو ﴿ وتحبون المال ﴾ وحد يُعد أساساً لكل إثم ، وهو ﴿ حباً جماً ﴾

﴿ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ ﴾ لقد جُبل الإنسان على حب المال ، وهو قوله تعالى :

﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ﴾ آل عمران:١٤ وقد أقر الله عز وجل صفة حب المال لدى عباده الأبرار بقوله تعالى :﴿ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ ... ﴾ البقرة: ١٧٧

فليس هناك من إثم في حب المال، لأنه حب فطري ، فمتى يكون حب المال إثماً ؟؟

﴿ حُبًّا جَمًّا ﴾ هذا هو موضع الإثم في حب المال، فقوله { جمّاً } يعني به : كثيراً شديداً وذلك أن حب المال لدى العباد على درجات متفاوتة ، وأكثر الناس حباً للمال هم البخلاء ، ليكون البخل بذلك هو الكلمة المعادلة لقوله تعالى : ﴿ حُباً جماً ﴾ أفيكون البخل صفة حاكمة للإنسان تقوده إلى الفساد ؟

قال تعالى :﴿ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ ﴾ الحشر: ٩

والشح هو البخل ، فمن وقاه الله من سلطان هذه الصفة كان من المفلحين ، أي الفائزين بالجنة بعد النجاة من النار، ومن المسلّم به أن فلاح الإنسان يوم القيامة تبع لما كان عليه في الحياة الدنيا من أعمال ومن أخلاق طيبة ، وفي ذلك إشارة إلى أن البخل يقود الإنسان إلى الخسران يوم القيامة ، وذلك أنه يصرفه في الحياة الدنيا عن كل مكرمة ومحمدة .

وقال ﷺ **{ وأي داء أدوى من البخل ؟ }** . وهو استفهام إنكاري بمعنى : ليس هناك من داء أشد فتكاً بالإنسان من داء البخل ، فهو يجرده من كل خلق كريم ويُلْبسُه مساوئ الأخلاق ، ومن ذلك قول على رضي الله عنه: **البخل جامع لمساوئ العيوب ، وهو زمام يُقاد به إلى كل سوء .**

فإذا كان الإنسان يحب المال ﴿ حباً جماً ﴾ قاده ذلك إلى البخل، والبخل أصل من الأصول التي تحكم حالة الإنسان فتجعله فاسداً في نفسه وفيما حوله ، وهو مامن شأنه أن يجعله مهاناً عند الله ، ولأن الشيء يفصح عنه ضده فإن عدم وقوع المرء في دائرة ﴿ حباً جماً ﴾ يقوده إلى الإنفاق في سبيل الله ، وهذا الإنفاق من كفارات الذنوب العظام ، بل ويجعل صاحبه واحداً من الذين يظلهم الله في ظله يوم القيامة ، وهو مآل يستدعي أن يكون صاحبه من أهل التقوى والصلاح في الحياة الدنيا . أما أولئك الواقعون في دائرة ﴿ حباً جماً ﴾ فهم على النقيض من ذلك .

علاقة المقطع بما سبق

المقطع الأول: ﴿ القسم وجوابه﴾ بينا فيه دلالة القسم على جلال المقسم به ، وذلك بتجلى قدرة الله وأمره فيه . وذكرنا أن تجلي الله تعالى يفضي إلى أمرين: الرحمة بالمؤمنين وصب العذاب على الطغاة الفاسدين ثم ذكر جل شأنه شواهد على ذلك التجلي ، واختار ذكر الفريق المستحق للنقمة ، وهم عاد وثمود وفرعون .ثم بين في المقطع الثالث علة انسياق الإنسان إلى الطغيان والفساد في البلاد، وهي الأسس النفسية القائمة على منظومة ﴿ أكرمن ، أهان﴾ . ثم جاء هذا المقطع ليبين الأسس العملية التي تفضي بالإنسان إلى الطغيان والفساد في الأرض : لاتكرمون ، لاتحاضون، وتأكلون ،

وتحبون . وهي أسس خطيرة تستدعي تجلي قدرة الله بالنقمة على كل من اتصف بإحداها ، فجاء المقطع بذلك منسجماً مع مفتتح السورة من جهة ، ومع السياق العام من جهة أخرى ، ومع المقطع السابق له بذكر الأسس التي تفضي إلى المهانة يوم القيامة ، ليعلم الناس أن الأسس المقابلة لها هي الأسس التي تحقق للإنسان الكرامة عند الله .

5- الكرامة والإهانة يوم القيامة

﴿ كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِاْيٓءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ ۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ﴿٢٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٦﴾ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾ ﴾ الفجر: ٢١ - ٣٠

﴿ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ ﴾ الفجر: ٢٢

كلا : رد لما سبق . أونفي لما سبق وإثبات لما يأتي، فما الذي تمّ رده ؟

قيل في ذلك : ماهكذا ينبغي أن يكون الأمر، وقيل : ردع لهم عن ذلك وإنكار لفعلهم ، وهو تلك الصفات الأربع السابقة . إلا أن دلالة ﴿ كلا ﴾ في السياق أوسع من ذلك ، فـ﴿ كلا ﴾ الأولى نفت فهم الإنسان لمعياري الكرامة والإهانة : ﴿ أكرمه ونعمه، قدر عليه رزقه ﴾ ثم أثبت المولى عز وجل الوجه الفعلي والحقيقي للكرامة والإهانة ، واختار أن يذكر في السورة معايير الإهانة ، وترك ذكر معايير الكرامة ، لدلالة المعايير الأولى عليها ، ولأن الشيء يظهره ضده . ثم جاءت ﴿ كلا ﴾ الثانية لرد ماذكره الله من معايير الكرامة والإهانة فكيف يثبت الله عز وجل الشيء وينفيه في وقت واحد ؟

معايير الإهانة والكرامة التي ذكرها المولى عز وجل وألمح إليها في المقطع السابق إنما هي المعايير الدائرة في فلك الحياة الدنيا ، ولكن هل هذه هي نهاية المطاف في دلالة الكرامة والإهانة ؟؟ كلا ، وهي الكلمة التي بُدِئ بها هذا المقطع ، ثم ذكر جل شأنه الفصل الختامي لكل من الكرامة والإهانة بمصير الإنسان إلى الجنة أو إلى النار .

﴿ دُكَّتِ ٱلۡأَرۡضُ دَكّٗا دَكّٗا ﴾ الدك: هو الكسر والدق.دكاً دكاً:أي مرة بعد مرة .ولكنا نجده سبحانه يقول في موضع آخر من كتابه الكريم :﴿ وَحُمِلَتِ ٱلۡأَرۡضُ وَٱلۡجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةٗ وَٰحِدَةٗ ١٤ ﴾ الحاقة: ١٤ فذكر دكة واحدة في حين أن آية ﴿ الفجر ﴾ ذكرت دكاً متتابعاً ، ووجه الجمع بين القولين هو أن الدكة الواحدة هي ذلك الزلزال العظيم الذي يكون إيذاناً بقيام الساعة، ومن جراء هذه الدكة يتتابع الدك على الأرض بسبب اختلال نظامها الذي أحدثته تلك الدكة، وتتابع الدك على الأرض والجبال له غاية ، ألا وهي تسوية الأرض، فلا ترى فيها ارتفاعاً ولاانخفاضاً قال تعالى : ﴿ وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡجِبَالِ فَقُلۡ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسۡفٗا ١٠٥ فَيَذَرُهَا قَاعٗا صَفۡصَفٗا ١٠٦ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجٗا وَلَآ أَمۡتٗا ١٠٧ ﴾ طه: ١٠٥ ــ ١٠٧

﴿ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلۡمَلَكُ صَفّٗا صَفّٗا ٢٢ ﴾ الفجر: ٢٢

وجاء ربك : أي أمره وقضاؤه ، على ماروي عن ابن عباس رضي الله عنهما

والمَلَكُ : أي الملائكة .

صفاً صفاً : حال ، أي أنهم يجيئون إلى مشهد اليوم الآخر صفوفاً يتلو بعضها بعضاً .

إن دلالة الكلام في لغة الإنسان محكومة بما يشهده الإنسان من تطبيقاتٍ لهذه الدلالات في واقعه ، ومن ذلك أن الفعل ﴿ جاء ﴾ يدل على حضور الذات إلى مكان لم تكن حاضرة فيه من قبل، فإذا أسند الفعل إلى الله عز وجل لم تجز عليه هذه الدلالة، وذلك لقولهم : إن الله جل ثناؤه لايُوصف بالتحول من مكان إلى مكان ، وأنَّى له التحول والانتقال ولامكان له ولاأوان ، ولايجري عليه وقت ولازمان ، لأن في جريان الوقت على الشيء فوت الأوقات..ومن فاته شيء فهو عاجز ، ولذلك تم تأويل ﴿ جاء

ربك﴾ بقولهم: جاء أمر ربك... ، ومع ذلك فإن إسناد فعل المجيء إلى أمر الله وقضائه لاإلى ذاته قد يفهم منه أن ذاته سبحانه منحسرة عن مكان المجيء ، أي غير حاضرة فيه ، أي أنه سبحانه متحيز في جهة دون أخرى ، وهو مالا تجوز نسبته إليه ، فهو كما قال رسول الله ﷺ **{ الأول فليس قبله شيء والآخر فليس بعده شيء، والظاهر فليس فوقه شيء والباطن فليس دونه شيء }** وكما قال على رضي الله عنه : **مع كل شيء لابمقارنة ، وغير كل شيء لابمزايلة .**

فإسناد الفعل ﴿ جاء ﴾ إلى الله يستوجب حداً دلالياً يليق بذاته سبحانه ، وحيث إنه وصف نفسه بأنه ليس كمثله شيء ، وبأنه لاتدركه الأبصار كان لزاماً أن نقول : إن مجيئه سبحانه مجيء مخصوص ، لا ندرك منه إلا معنى حضور أمره وتجلي قدرته ، فلا يكون المُلْك في ذلك اليوم إلا له وحده وهو الواحد القهار .

وقد اختار جل شأنه كلمة ﴿ ربك ﴾ ولم يختر اسمه ﴿ الله ﴾وفي ذلك مناسبة للمشهد ، لأن كلمة الرب تعني المالك والسيد والمربي، أي أنه سبحانه يُقْبلُ على عباده يوم القيامة من آفاق كونه ربهم . فهو مالك أمرهم والمتصرف الوحيد في أحوالهم﴿ مالك يوم الدين ﴾ ولاأحد في ذلك اليوم يملك أن يكون له قول إلا الله تعالى : ﴿ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾ ﴾النبأ: ٣٨ ثم هو وحده سبحانه الذي يتعاهدهم بما هو خير لهم ، وذلك من خلال رحمته الواسعة التي ادخرها لهم في ذلك اليوم . وفي اقتران كلمة ﴿ الرب﴾ بكاف الخطاب ، التي تتوجه ابتداء إلى محمد ﷺ ثم إلى كل من آمن بدعوته، بيان من الله تعالى بأن محمد ﷺ وأمته أعلى الناس تعلقاً بمقام الربوبية يوم القيامة ، ولو أردنا تفصيل ذلك لطال بنا المقام.

﴿ صَفًّا صَفًّا ﴾ هاتان الكلمتان حال من الملائكة ، أي أنهم يجيئون على هذه الهيئة. ومجيئهم على هذه الصفة لم يكن اختياراً منهم ، إنما هم ينفذون أمراً أُلْقِي في ذواتهم فمضوا عليه بدون اختيار منهم .

﴿ وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴾

الفجر: ٢٣

﴿ وَجِاْىٓءَ ﴾ فعل ماض مبني للمجهول ، أي أن جهنم لاتأتي بنفسها إنما يُجَاء بها إلى مشهد يوم القيامة ، وهو قول رسول الله ﷺ **{ يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها }** رواه مسلم . أي خمسة مليارات من الملائكة يجيئون بها .

﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ ﴾ يصر النص القرآني في هذه السورة على ذكر الإنسان، مع أن المراد منه في هذا الموضع هو الكافر ، ودلالة هذا الاختيار هو ما أشرنا إليه فيما سبق ، وهو أن السورة تتحدث عن الإنسان من جهة الأصل الذي جُبل عليه وماينبني على ذلك الأصل من توجهات نحو الكرامة أو نحو الإهانة . والتذكر في اللغة هو أن يستحضر الإنسان في قلبه أمراً مرّ عليه من قبل ثم نسيه ، فماالذي يتذكره الإنسان يوم القيامة ؟

إنه الميثاق الذي كان منه في عالم الذر ، وهو قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ ﴾ الأعراف: ١٧٢ فإذا انحرف الإنسان عن توحيد الألوهية والربوبية أرسل الله إليه الرسل لتذكره بذلك الميثاق الذي أُخِذ منه في عالم الذر ، ولكنه يرفض التذكر ،

ووجه رفضه أنه يأبى الإيمان بالله واليوم الآخر، فإذا دُكَّت الأرض ، وبُعث الأموات من قبورهم وجاء الملائكة صفاً صفاً ، وجيء يومئذ بجهنم ، يومئذ يتذكر الإنسان ، أي يؤمن بأن ماكانت تخبر به الرسل في الحياة حق ويقين .

﴿ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكۡرَىٰ ﴾ إن الذكرى التي تنفع الإنسان يوم القيامة هي تلك التي تكون منه في الحياة الدنيا . ﴿ أنى له هذه الذكرى ﴾ أي من أين له أن يأتي بالذكرى التي ينتفع بها وقد انقضت الحياة الدنيا. ولذلك فإن الاستفهام في الآية استفهام إنكاري، بمعنى أنه ليس له من سبيل إلى تلك الذكرى التي ينتفع بها.

﴿ يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي قَدَّمۡتُ لِحَيَاتِي ﴿٢٤﴾ ﴾ الفجر: ٢٤

لو قيل : ويقول ياليتني... لكان دخول حرف العطف على الآية دليلاً على استقلالية ذلك القول عن قوله تعالى { يتذكر الإنسان } لأن حرف العطف يقتضي المغايرة بين المعطوف والمعطوف عليه، ولكن الله عز وجل لم يذكر حرف الواو ؛ ليكون قوله : ﴿ يقول ياليتني ﴾ بياناً وتفصيلاً للدلالة ﴿ يتذكر﴾ أو أن الأصل كان وجود حرف العطف، فترك الله ذكره للدلالة على تلازم الفعاليتين : التذكر والقول ، أو على سرعة قول الإنسان ﴿ ياليتني.... لهول مايراه في ذلك المشهد الأخروي ، وكل ذلك وراد .□

﴿ يَٰلَيۡتَنِي قَدَّمۡتُ لِحَيَاتِي ﴾

{ ليت }: حرف يفيد التمني ، والتمني هو طلب حصول أمر غير ممكن الوقوع □

وهو ماأدركه ذلك الإنسان ، فقد مضى زمن إمكان حصول ما كان يرجوه وانقضى ، وهو زمن الحياة الدنيا ، وهو الآن بصدد أن يُحاسب على تفريطه الذي كان منه في ذلك الزمان .

{ قدمت } : أي فعلت في الحياة الدنيا ماينفعني في هذا اليوم ، إذ أن كل مايفعله الإنسان في الحياة الدنيا يسبقه إلى الملأ الأعلى ، أي يتقدمه ، فإذا مات لحق بما قدَّم ، قال تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَـٰرَهُمْ ﴾يس: ١٢

{ لحياتي } : أفرد الله كلمة حياة ، وأراد بها الحياة في اليوم الآخر، فدل ذلك على أنه لم تكن له حياة من قبل ، وفي ذلك التفات إلى أمرين :

الأول: أن الحياة الدنيا أقل وأهون من أن يُقال لها حياة إذا قيست بالحياة في اليوم الآخر ، فالإنسان في الدنيا يعيش مائة عام أو أقل أو أكثر، بينما تمتد الحياة في اليوم الآخر لآلاف السنين ، بل ﴿ خالدين فيها أبداً ﴾ ومن بين المقاييس التي تذكر ذلك قول رسول الله ﷺ

{ يؤتى بأنعم أهل الدنيا من أهل النار يوم القيامة ، فيصبغ في النار صبغة ثم يُقال : ياابن آدم هل رأيت خيراً قط ؟ هل مر بك نعيم قط ؟ فيقول : لاواللَّه يارب ، ويؤتى بأشد الناس بؤساً في الدنيا من أهل الجنة ، فيُصبغ صبغة في الجنة ، فيُقال له : ياابن آدم هل رأيت بؤساً قط ؟ هل مر بك شدة قط ؟ فيقول : لا واللَّه يارب ، مامر بي من بؤس قط ؟ ولا رأيت شدة قط } رواه مسلم . فكل منهما يُقسم ، غير متجانف لكذب ، أنه مامربه شيء مما ذُكر له مع أنه مر به في الحياة الدنيا ، ولذلك كان إفراده كلمة ﴿ حياتي ﴾ إشارة إلى أنه لايرى له حياة إلا تلك التي هو مقبل عليها .

الثاني : إذا اجتمعت الدنيا والآخرة كان لفظ الحياة مختصاً بالآخرة دون الدنيا، وذلك لقول علي ﷺ : **الناس نيام ، فإذا ماتوا انتبهوا** .وذلك أن النوم أخو الموت كما قال ﷺ ، فإذا كان حال الإنسان في الدنيا كحال النائم ، وحاله بعد الموت كحال من استيقظ فإن ماوراء الحياة الدنيا هو الأولى بأن يُقال له حياة .

﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ ﴾ الفجر: ٢٥

﴿ لايُعذّب﴾ قُرئت هذه الكلمة بكسر الذال ، وقُرئت بفتح الذال ، وذُكِر أنها قراءة رسول الله ﷺ ، ورجع إليها أبو عمرو في آخر عمره . والقراءتان تؤديان معنيين مختلفين :

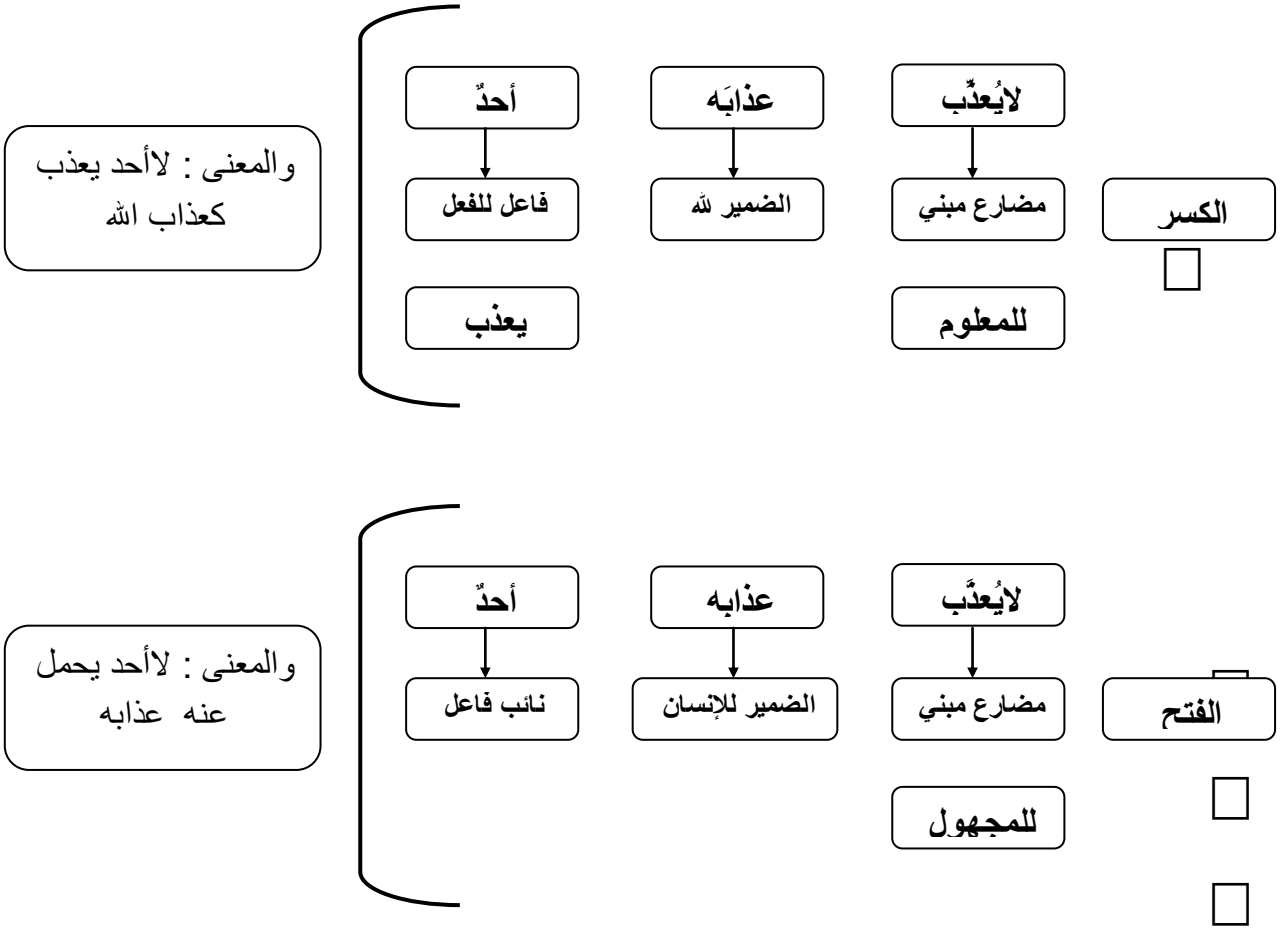

والقراءة الثانية هي القراءة الأجدر بالسياق ، وهي من جملة القراءات المروية في كتب التفسير ، وهي المختارة عندي ؛ لأن الله عز وجل يذكر الخط العام لكل من طغى وأفسد في الأرض ، فالإنسان المذكور في هذا المقطع هو كل إنسان مضى في هذا السبيل . فليس أمام هذا الإنسان من سبيل للخلاص مما هو مرصود له من عذاب ،ولن يجد ذاتاً ﴿ تُعذَّب عذابه﴾ أي تحمله عنه ، وهذا الوجه إنما هو صورة من الصور التي ذكرت في القرآن ، والتي تغلق أمام هذا الإنسان الذي استحق العذاب كل سبيل للخلاص ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا يُؤۡخَذُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ البقرة: ٤٨

﴿ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٞ ﴿٢٦﴾ ﴾ الفجر: ٢٦

﴿ ولايوثِق ﴾ جاء فيها نفس ماجاء في كلمة ﴿ لايعذب ﴾ فقد قُرئت الثاء بالكسر والفتح ، والمختار عندي هو القراءة بالفتح لنفس البيان الذي ذكرناه في كلمة ﴿لايُعذب﴾ أي أنه لن يجد أحداً يحمل عنه أن يُوثق مكانه .

والوثاق هو أن تربط الدابة في مكان بعينه ، فلا تملك أن تغادره ، وهو ماتوعّد الله به الإنسان حال كونه من أهل النار، ومن الشواهد الدالة على ذلك قوله تعالى في شأن امرأة أبي لهب : ﴿ فِي جِيدِهَا حَبۡلٞ مِّن مَّسَدِۭ ﴾ المسد: ٥

فلأي شيء يُوضع في عنقها ذلك الحبل إن لم يكن وثاقاً يشدها إلى مكانٍ بعينه ؟

وقال ﷺ **{ يُؤْتَى بالرَّجُلِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُلْقَى فِي النَّار ، فَتَنْدَلِقُ أَقْتَابُ بَطْنِهِ فَيَدُورُ كَمَا يَدُورُ الْحِمَارُ فِي الرَّحَى ، فَيَجْتَمِعُ إِلَيْهِ أَهْلُ النَّار فَيَقُولُونَ : مَا لَكَ ؟ أَلَمْ تَكُ تَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ ، وَتَنْهَى عَنِ الْمُنْكَر ؟ فَيَقُولُ :**

بَلَى ، كُنْتُ آمُرُ بِالْمَعْرُوفِ وَلا آتِيهِ ، وَأَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ وَآتِيه } رواه أحمد ومسلم

والحمار عندما يدور بالرحى يكون موثوقاً إلى حد معين ليكون دورانه مناسباً لموضع الرحى وماتطحنه .

وقال الله تعالى في شأن الكافر : ﴿ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ ﴾ الحاقة: ٣٠ – ٣٢

﴿ غِلوه﴾ قيدوا يديه إلى عنقه ، ﴿صلّوه﴾ : أدخلوه الجحيم ، ﴿ فاسلكوه﴾ : أي اجعلوه موثقاً إلى هذه السلسلة .

﴿ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ﴾ الفجر: ٢٧

ابتداء من هذه الآية وإلى تمام السورة يذكر الله تعالى أولئك الذين قضى لهم بالكرامة يوم القيامة ، وذلك بعد أن ذكر في الآيتين السابقتين أصحاب المهانة . ومن كرامة هذه النفس أن الله يكلمها مثلما كلم موسى عليه السلام على ماقاله النسفي رحمه الله .

والمقصود بالنفس هو جملة الإنسان ، جسداً وروحاً ، يخاطبها الله يوم القيامة بهذا الخطاب ، ويصفها بأنها نفس مطمئنة ، ولفهم هذه الصفة نعرضها على غيرها من صفات النفس في كتاب الله :

النفس الأمارة بالسوء : هي أخبث النفوس ، تُقبل على فعل السوء ولاترعوي عن فعله ، بل تستمرئه ، وهي نفوس الكافرين والطغاة .

النفس اللوامة : وهي نفس كريمة عند الله ، ومن كرامتها أنه أقسم بها في مفتتح سورة القيامة ، وهي نفس لم تتخلص من فعل السوء ، بل هي تفعله ، والفارق بينها وبين النفس الأمارة أن صاحبها لايستمرئ فعل السوء بل يندم على فعله ، ويلوم نفسه على مايفعله من سوء ، ويتوجه إلى ربه تائباً مستغفراً .

النفس المطمئنة : وهي النفس المستقرة على فعل الخير، فلا يجد صاحبها ميلاً إلى فعل مالايُرْضي الله ، فهو خالٍ من مشقة رد النفس عن هواها ، لأن نفسه لاتهوى إلا فعل الخير .

فإذا التفتنا إلى أن صاحب النفس اللوامة هو أيضاً من المعنين بذلك الخطاب يوم القيامة توجهت بنا كلمة ﴿ المطمئنة﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ ﴾ القيامة: ٢٢ – ٢٣ ونضارة الوجه سمة من سمات اطمئنان النفس، ومبعث اطمئنانها علمها بأنها من أهل الجنة . فاطمئنان النفس في الدنيا يأتي من وجه ، ويوم القيامة يأتي من وجه آخر .

﴿ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ ﴾ الفجر: ٢٨

استخدام كلمة ﴿ ربك ﴾ يشير إلى دلالة الرحمة من الرحمن الرحيم ، وذلك لدلالة كلمة ﴿رب﴾ على المربي الذي يتعاهد مربوبه بكل ماهو خير له ، وقد أُضِيفت الكلمة إلى كاف الخطاب التي تتوجه إلى كل صاحب نفس مطمئنة ، وفي ذلك تشريف لكل من له تلك النفس .

ومن فيوضات كلمة ﴿ ربك ﴾ أن الحالة التي ترجع فيها كل نفس مطمئنة إلى ربها هي ﴿ راضية مرضية ﴾ وهي حالة تنبئ عن سمو مقام صاحب النفس المطمئنة لأن الكلمتين ترسمان علاقة تبادلية بين العبد وربه ، حالهما كحال خليل الله وحبيب الله ، الخُلّة متبادلة ـ والحب متبادل ، فالعبد يحب ربه ، وربه يحبه .

فأين هو موضع هذه الدلالة في راضية مرضية ؟

﴿ راضية ﴾ اسم فاعل من الفعل الثلاثي : رضي يرضى، فهو ﴿ راضي ﴾ .

﴿ مرضية﴾ : اسم مفعول من الفعل رَضِيَ يرْضَى ، والأصل: مَرْضُوي على وزن مفعول ، إلا أن الواو قلبت ياء فأُدْغِمت مع الياء فأصبحت : مرضيّ ، واسم الفاعل يدل على القائم بالفعل ، أي أن الرضى منبعث من تلك النفس المطمئنة ، واسم المفعول يدل على من وقع عليه الفعل ، أي أن فعل الرضى واقع على تلك النفس المطمئنة من ذات أخرى ، وهو الله عز وجل . وهذه العلاقة التبادلية بين العبد وربه ليست أمراً هيناً ، بل هي مقام عظيم ، ذكره الله بلفظ أكثر اتساعاً في وصف المؤمنين، وهو قوله تعالى : ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ﴾ التوبة: ١٠٠

﴿ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ ﴾ الفجر: ٢٩

الفاء تفيد الترتيب مع التعقيب ، أي أن الدخول في عباد الله يأتي عقب مقام الرضى بل ومترتباً عليه ، وقيل في بيان ﴿ في عبادي ﴾ في جملة عبادي الصالحين ، وهو معنى قريب ، إلا أن الكلمة تتسع لما هو أجل وأعلى وأسمى ، وبيان ذلك فيما يلي:

جُمعت كلمة ﴿ عبد ﴾ في القرآن على صورتين: عبيد – عباد . أما كلمة عبيد فلم تستخدم إلا مع الأشقياء من خلق الله ، وقد وردت في القرآن خمس مرات حاملة لهذا الوجه ، أما كلمة{ عباد } فقد جاءت على معنيين: عام وخاص، أما العام فهو دلالته على الخلق جميعاً بدون نظر إلى كفر أو إلى إيمان، والخاص هو دلالته على المُخلصين من العباد : فالملائكة وصفهم الله بصفة عباد ، فقال : ﴿ وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ﴾الزخرف: ١٩ الأنبياء أيضاً وُصفهم الله بكلمة عباد : ﴿ وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾ ﴾ص: ٤٥ وأهل التقوى أيضاً وصفهم الله بصفة عباد ، فقال : ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ ﴾ الفرقان: ٦٣

أي أن قوله سبحانه ﴿ في عبادي ﴾ لايحتاج إلى تقدير كلمة : الصالحين ، لأن نسق استخدامها في ا لقرآن يدل على أن المراد بها هم أهل الصلاح : أي أن كل صاحب نفس مطمئنة سيدخل في جملة الموصوفين بصفة ﴿ عباد ﴾ فماذا في هذه الكلمة من سمات الكرامة ؟

نلاحظ أن أسمى ماوُصف به محمد ﷺ في مقام الحضرة الإلهية هو صفة ﴿ عبد ﴾ قال تعالى : ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾ ﴾ الإسراء: ١

ولكي نفهم آفاق هذا الوصف نستخدم له مادة : عبد ، ودلالتها في قولنا : عَبَّدَ فلانٌ الطريقَ ، والمعنى أنه أزال منها الحفر والنتوءات حتى غدت مستوية ، فإذا مضت فيها المركبة مضت مُضياً سريعاً ، ومن هذا الوجه نفهم دلالة كلمة ﴿ عبد ﴾ فهو الإنسان الذي أزال من نفسه حفر ونتوءات الإثم والعصيان ، لتغدوا ذاته بذلك ذاتاً

مباركة ، تمضي فيها مواكب القدرة الإلهية مضياً ماضياً ، حتى أنه لو قال للشيء كن لكان ، كما في الحديث القدسي : **{ عبدي أطعني تكن عبداً ربانياً تقول للشيء كُن فيكون } .**

وهذه الآفاق الدلالية هي المرادة من قوله تعالى: ﴿فادخلي في عبادي ﴾ وهو ماسينبني عليه مقام ﴿ جنتي ﴾

﴿ وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي ٣٠ ﴾ الفجر: ٣٠

هذه هي المرتبة الثالثة من مراتب كرامة الإنسان صاحب ﴿ النفس المطمئنة ﴾ إذ أن الرزق في الجنة ليس مرهوناً بالأسباب كما هو الحال في الحياة الدنيا ، إنما هو مرهون بمشيئة صاحب النفس المطمئنة، ومن شواهد هذه الحقيقة قول رسول الله ﷺ

{ إن في الجنة طيراً مثل أعناق البُخت تصطف على يد ولي اللّه منقول أحدها: ياولي اللّه، رعيت في مُرُوج الجنة تحت العرش، شربت من عيون التنسيم، فكل مني، فلا يزلن يفتخرن بين يديه حتى يخطر على قلبه أكل أحدها فيخر بين يديه على ألوان مختلفة، فيأكل منه ماأراد، فإذا شبع تجمع عظام الطي، فيطير يرعى في الجنة حيث شاء } فقال عمر يانبي اللّه ، إنها لناعمة، قال: { آكلها أنعم منها }رواه الثعلبي.

فليس بين أن يحضر ذلك الطير، مطبوخاً أو مشوياً ، بين يدي ساكن الجنة ، إلا أن يخطر ذلك على قلبه ، أي: يشاء ذلك،وكأنه بهذه المشيئة يقول لذلك الطير ﴿ كن ﴾

ليكون من بعدها على ما أراد ،وهو المستوى الدلالي الذي تُفْضى إليه دلالة ﴿ فادخلي في عبادي ﴾ .

﴿ جنتي ﴾ أضاف المولى عز وجل لفظ الجنة إلى ذاته ، فنالت الجنة بذلك مقاماً شريفاً عالياً بإضافتها إلى العلي القدير ، ولذلك ورد في ذكر حد نعيم الجنة فيما روي عن رسول الله ﷺ **{ قال اللّه: أعددت لعبادي مالاعين رأت ، ولاأذن سمعت ، ولاخطر على قلب بشر . فاقرأوا إن شئتم : { فلا تعلم نفس ماأخفي لهم من قرة عين }** رواه البخاري ومسلم .

الآيات الثلاث السابقة تقدم لنا صورة كرامة الإنسان يوم القيامة في ثلاث مستويات ، وهي كما يلي :

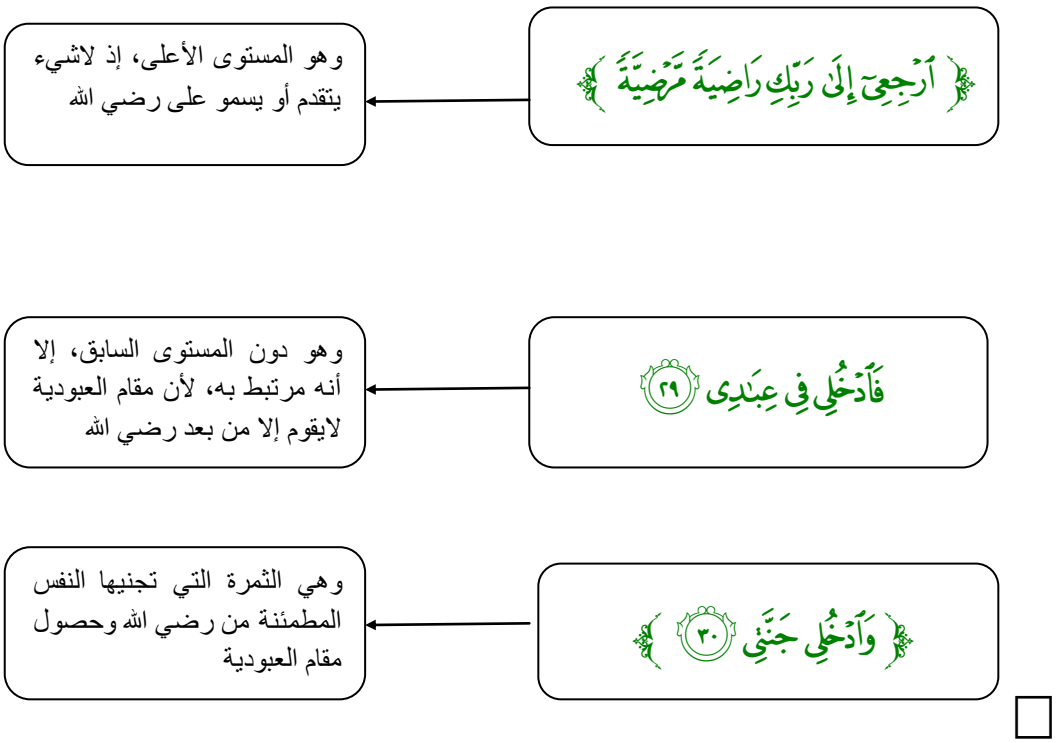

الخط البياني

وهو رسم يظهر ما بين المقاطع من ارتباط :

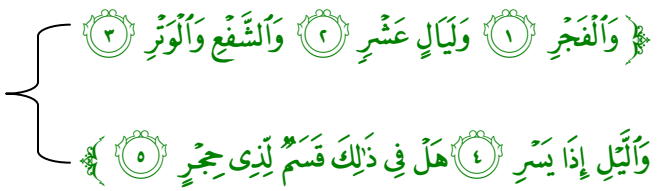

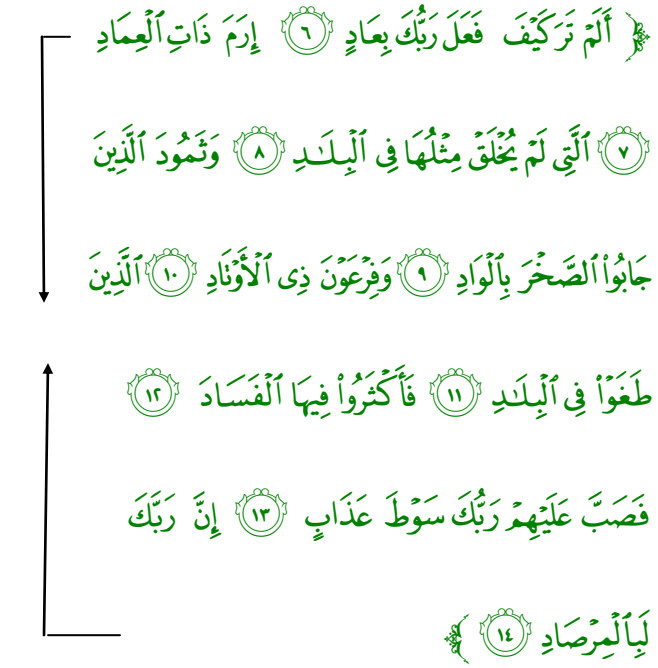

﴿ كَلَّا بَل لَّا تُكۡرِمُونَ ٱلۡيَتِيمَ ١٧ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ

عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ ١٨ وَتَأۡكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ

أَكۡلٗا لَّمّٗا ١٩ وَتُحِبُّونَ ٱلۡمَالَ حُبّٗا جَمّٗا ٢٠ ﴾

الكرامة والإهانة

في دين الله

﴿ كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلۡأَرۡضُ دَكّٗا دَكّٗا ٢١ وَجَآءَ رَبُّكَ

وَٱلۡمَلَكُ صَفّٗا صَفّٗا ٢٢ وَجِاْيٓءَ يَوۡمَئِذِۭ بِجَهَنَّمَۚ يَوۡمَئِذٖ

يَتَذَكَّرُ ٱلۡإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكۡرَىٰ ٢٣ يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي

قَدَّمۡتُ لِحَيَاتِي ٢٤ فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٞ ٢٥ وَلَا يُوثِقُ

وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٞ ٢٦ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ٢٧ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ

رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ ٢٨ فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي ٢٩ وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي ٣٠ ﴾

الكرامة والإهانة

يوم القيامة

الفهرس

سورة الفجر	2
مقاطع السورة	3
1 ـ القسم وجوابه	4
2 ـ كثرة العطاء ابتلاء	16
3 ـ الكرامة والإهانة في رأي الإنسان	26
4 ـ الكرامة والإهانة في دين الله	31
5 ـ الكرامة والإهانة يوم القيامة	40
الخط البياني	54